

العدد: ٩٨ ذو القعدة ١٤٢٤هـ السنة الثالثة والعشرون

التعليم وإشكالية التنمية

د. حسن بن إبراهيم الهنداوي

حسن بن إبراهيم الهنداوي

* من مواليد القيروان - تونس.

* حصل على درجة الدكتوراة من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، تخصص أصول الفقه.

* له العديد من البحوث والدراسات المنشورة، منها:

- منهجية ابن حزم.

- حكم الظفر بالحق — دراسة فقهية مقارنة.

حل إلى منهجية البحث العلمي.

التعليم
وإشكالية التنمية

د. حسن بن إبراهيم الهنداوي

الطبعة الأولى

ذو القعدة ١٤٢٤هـ

كانون الأول (ديسمبر) - كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٤م

حسن بن إبراهيم الهنداوي

التعليم.. وإشكالية التنمية

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٤م.

١٧٦ ص، ٢٠سم - (كتاب الأمة، ٩٨)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٥ / ٢٠٠٤

الرقم الدولي (ردمك): ٩-٧٩-٤٨-٩٩٩٢١

أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ... ﴾

(فاطر: ٢٧-٢٨)

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله الذي جعل التوحيد لله تعالى خلاصاً من ألوهية البشر وتسلط الإنسان على الإنسان، وتحقيقاً للمساواة وكرامة الإنسان، وإيقافاً للكهانات بمختلف أشكالها وممارساتها، ومنطلقاً للنمو والارتقاء؛ وجعل الإنسان المُستخْلَف محور الفعل الحضاري ووسيلته وهدفه؛ وعلمه الأسماء كلها، ليكون بهذا التعليم أهلاً للقيام بأعباء الاستخلاف في الأرض وإعمارها وامتلاك القدرة على تسخير الكون، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (فاطر:٣٩).. وقال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (الملك:٢٣)، ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ﴾ (هود:٦١)، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:١٣).

وكان التعليم مفتاحاً لهذا الاستخلاف والإعمار والتسخير، ومرافقاً لخطوات الإنسان الأولى على الأرض، لأن العلم والتعليم دليل العمل والتعامل، وسبيل التنمية والنمو والارتقاء بخصائص الإنسان وصفاته وأدواته، على حد سواء، حيث اقتضت حكمةُ الله جَعْلَ آدمَ وذريته

خلفاء الأرض، وأن يكون من متطلبات هذا الجَعْل ومؤهلاته التعليم، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٣٠) وأتبعها بقوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة:٣١).

والصلاة والسلام على الرسول المعلم، الذي انتهت إلى رسالته أصول الرسالات السماوية من لدن آدم عليه السلام، واجتمعت له كمالات الأنبياء، فكان وريث النبوة وخاتمها، واللبنة الأخيرة في نموها وبنائها، حيث الكمال والاكتمال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة:٣).

وكان التعليم منطلقه والغاية من مبتعثه، فقال عليه الصلاة والسلام: «...إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا» (أخرجه ابن ماجه) وكانت التزكية وتنمية خصائص وصفات الإنسان سبيله في الارتقاء وإقامة البناء الأخير للنبوة، فقال عليه الصلاة والسلام: « اقْرَأْ وَارْتَقِ» (أخرجه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ) ، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ

رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة:٢) وبتلك النبوة الخاتمة قدم الإسلامُ أنموذجاً كاملاً شاملاً لعملية الاستخلاف، ودليلاً خالداً للمضي في رحلة الحياة، وحقق الانسجام في مكونات الحياة، وقضى على الثنائيات التي أنهكت البشرية ومزقت حياة الإنسان، فكان التوازي في العملية التنموية بين خصائص وصفات الإنسان وبين الارتقاء بوسائله وأدواته وإبداعاته، فلا تعليم بدون تربية وحكمة، ولا تنمية بدون تزكية للنفس؛ لأن الإنسان وسيلة التنمية وهدفها في الوقت نفسه، فالنظر إليه كوسيلة للتنمية والاقتصار على تنمية وسائله على حساب خصائصه وصفاته شقوة وحياة ضنك، والانصراف إلى تنمية خصائصه وصفاته وإهمال وسائله وأدواته عطالة حضارية ووقوع في الثنائية، وفهم مغشوش لرسالة النبوة، إذ لا يمكن أن يُتصور أن تنمو خصائص الإنسان وتتخلف وسائله؛ لأن تنمية الوسائل من لوازم نمو الخصائص والصفات، ومتطلباتها.

وبعد:

فهذا كتاب الأمة الثامن والتسعون: «**التعليم وإشكالية التنمية**» للدكتور حسن بن إبراهيم الهنداوي، في سلسلة «**كتاب الأمة**» التي يصدرها مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون

الإسلامية في دولة قطر، في محاولة لإعادة التشكيل الثقافي، والتمحور حول إشكالية التنمية الثقافية، ودراسة أسبابها الحقيقية، ومظاهرها المتعددة، وتجلياتها في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحتى التربوية والتعليمية، وتحديد مواطن الخلل في عملية النهوض، لردم فجوة التخلف، واستعادة الفاعلية، وإخراج الأمة من جديد، وإعادة بناء ولائها المبعثر، لتستأنف دورها الإنساني والعالمي في إلحاق الرحمة بالعالمين، واجتثاث جذور الفتنة وشيوع الظلم وتسلط الإنسان على الإنسان، وإعادة التوازن إلى الحياة والتوازي بين تنمية خصائص الإنسان وصفاته وبين وسائله وأدواته، التي تحولت تنميتها إلى أدوات للبغي والهيمنة والتسلط والاستغلال، وإعادة بناء إنسان الواجب، إنسان الإنتاج والعطاء، وجعله معيار الحضارة والتنمية، بعد أن كاد يغيب أمام إنسان الاستهلاك، معيار حضارة اليوم، الذي لا يبصر إلا حقه، ويقاس تقدمه بحجم استهلاكه، وإعادة الاعتبار لإنسان العلم والخلق والخبرة والفطرة، بعد أن كاد يغيب أمام إنسان اللذة والاكتناز والغريزة، حيث أصبح الأنموذج لإنسان العصر هو رجل الأعمال الناجح، وليس رجل الإبداع والخبرة والعلم والابتكار والعطاء.

ولا يغيب عنا هنا أن بناء الشاكلة الثقافية، أو إعادة التشكيل الثقافي، وبناء المجتمع المعرفي وتوفير البيئة والمناخ العلمي، يعتبر من الصناعات

الثقيلة والشاقة، التي تتطلب الكثير من الصبر والتأني والمراجعة والفاعلية والاحتساب، ذلك أن الاشتغال بالتحول الثقافي وتحقيقه كان ولا يزال مهمة أولي العزم من الرسل وأصحاب العزائم من الرجال، الذين يسيرون على قدم النبوة.

وقد لا نكون بحاجة إلى معاودة التأكيد أن التنمية رؤية ثقافية وعملية حضارية متراكبة وشاملة، ذات أبعاد متعددة ومتكاملة، وليست ذات بعد واحد، وإن كان الأظهر فيها اليوم هو البعد الاقتصادي والسياسي، إذ لا يمكن أن يُتصور أن يترافق النمو في جانب مع تخلف وتراجع في بقية الجوانب الأخرى، فالقضية قضية رؤية ثقافية شاملة، إذا اعتبرنا أن الثقافة نسيج ذهني يصنع الإنسان ويصبغه، ويتحكم بسلوكه، توجيهاً وتقويماً، وهي أيضاً فعل حضاري، بكل ما يشتمل عليه مصطلح الحضارة من أنشطة، وهي منهجية واستراتيجية عمل تأخذ في اعتبارها بعدي الزمان والمكان، وتستصحب قيم الأمة ومعادلتها الاجتماعية، وتستوعب حركات التغيير والتنمية والإصلاح والمراجعة، وتتوقف طويلاً عند مقومات فترات التألق والإنجاز لتقيس منها وتستصحبها، كما تتوقف بالقدر نفسه عند فترات التراجع والتقهقر والتخلف، لتبحث في الأسباب التي أنشأتها، وتحدد مواطن الخلل والقصور التي حالت دون بلوغ الأهداف المأمولة فتعتبر بها.

ذلـــك أن الارتكـــاز إلى حـــركات التغيير، بكل وجوهها وأدائها، والإفـــادة مـــن تجربـــتها، سواء كانت خطأ في عملية التسديد والسداد والوقاية الحضارية، أم كانت صواباً في عملية التقوي والانطلاق والابتداء من حيث انتهت، يشكل رصيداً لا بد منه في أي عملية تنموية جديدة.

وهـــذا لا يعـــني بحـــال الانكفاء على الذات، في عملية التحديث والتنمية، والتجاهل لعمليات التحديث والتنمية العالمية، وعدم الإفادة من رؤيـــتها ومنهجيـــتها، وإنما التأكيد أن عملية التنمية والنمو لو تأملنا في مصطلحها لا يمكن إلا أن ترتكز إلى شيء قائم فتنميه ذاتياً، وبذلك لا تتحقق إلا من خلال الذات والبناء على الأصول الحضارية ذاتها، وإلا تكون حركةً في الفـــراغ، إذ لا يمكن أن نتصور قيام واقع أمة، الذي هو ثمرة أو انتكاسة لامتداد حضارتها، على أصول حضارة أخرى، إضافة إلى أن الواقع يشهد أن محـــاولات التحديـــث مـــن خارج حضارة الأمة وقيمها ومعادلتها الاجتماعـــية، انتهت إلى نوع من التكديس والتمظهر التنموي، وفوتت عـــلى الأمـــة الكثير من الفرص التي تمكنها من استنبات التنمية الذاتية في ضوء إمكاناتها، فكانت سبب عطالة بدل أن تكون عامل نمو ونهوض.

إن عمليات التحديث المستوردة كانت أشبه بالسحر، الذي ما لبث أن انقلب على الســـاحر عندما ظهرت الحقيقة وأحرقت خشبة المسرح ولم يبق إلا الممثلون.

وإذا كانـــت التنمية رؤية ثقافية -كما أسلفنا- فلا يمكن أن تتحقق عـــلى مستوى الذات والإفادة من (الآخر) إلا إذا توفرت المعايير والقيم الحقيقـــية الـــتي تتحكم بعمليتي الأخذ والرد.. والذي يفتقد هذه الرؤية الثقافية هو كَلٌّ في الميزان التنموي، عاجز عن الاستنبات، كما هو عاجز عـــن اختيار ما يفيده من (الآخر) فقد يختار ما يساهم بعجزه واستنقاعه الحضاري وما يكرس تخلفه ويعمق فجوة التخلف في مجتمعه.

إن معـــرفة مناهج ومعارف (الآخر) وخططه التنموية والإفادة منها وتجنب عثراتها فرضاً حضارياً، وإسهاماً إنسانياً، وتفاعلاً تنموياً في العطاء والأخذ وبناء المشترك الإنساني.

فعـــلى الـــرغم من أن الإسلام يمثل الرسالة الخاتمة، التي انتهت إليها أصول الرسالات السماوية جميعاً، وكان الموحى إليه يقود المسيرة البشرية عـــلى المستويات التنموية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، مع ذلك طلب إلى المسلمين أصحاب هذه الرسالة السير في الأرض والتعرف على مـــا فيها، والنظر في أحوال أهلها، والتفاعل الحضاري مع (الآخر)؛ لأن التـــنوع والنظر والتفاكر والمثاقفة سبيلُ تنمية الذات والنهوض الحضاري، قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (العنكبوت: ٢٠)، وقـــال مســـتنكراً حالة الركود: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟

﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (يوسف:١٠٩)، حتى أنه اعتبر السير في الأرض والتوغل في حضارة (الآخر) سبيلاً للبيان والمعرفة، ووسيلة للاهتداء إلى التعرف على أسباب السقوط والنهوض، كسنن وقوانين تحكم الحياة والأحياء جميعاً، وتحقيقاً للاعتبار، وتجنباً لأسباب السقوط والتراجع والتخلف، وتحققاً بالوقاية الحضارية التي تؤمن المسيرة التنموية، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام:١١)، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٨).

ولا شك عندي أن شيوع التخلف وغياب الرؤية التنموية في عالم المسلمين سببه الأساس أننا اليوم لسنا في مستوى إسلامنا بالنسبة للذات، ولسنا بمستوى عصرنا بالنسبة (للآخر)، وأعتقد أن الأمرين متلازمان إلى حد بعيد.

وعلى الرغم من أن عملية النهوض وردم فجوة التخلف هي عملية جماعية أو مجتمعية إلا أنها تبدأ من عند الفرد في إطار الدائرة التي يشغلها ويتوسع فيها، لتتراكم مجهودات الأفراد وتشكل مجرى كبيراً تنخرط فيه الأمة جميعاً.

والحقيقة التي لا لبس فيها أن العملية التنموية هي تفكير وتنهيج، ورؤية نخبة، وإنجاز وفعل أمة، وأن الإشكالية الحقيقية تكمن في أزمة

النخبة، التي تُنصِّب نفسها في مختلف المواقع و لم تنتج إلا التخلف والتراجع.. ومع ذلك تصر على نخبويتها والوصاية على الأمة.

إن واقع الحال التراجعي، الذي تعاني منه الأمة يعني ببساطة فشل النخبة في إنتاج تنمية، أو في بناء مناخ تنمية تتحرك فيه الأمة.

فالإشكالية في من نصبوا من أنفسهم أوصياء على الأمة، على المستوى السياسي والديني والاجتماعي، فهذا الحال الذي تعاني منه الأمة هو من إنتاجهم، مهما حاولوا تغيير لبوسهم وتغيير عناوين خطبهم ومؤتمراتهم والتفتيش على عناوين جديدة، ذلك أن المضامين هي هي.. وكم من المؤتمرات والندوات تتغير عناوينها ومحاورها ولا يتغير أشخاصها المحترفون، فلا تخرج عن تكريس حالة التخلف، أو تنمية التخلف، وفي هذه الحالة يشيع فقه المخارج، ويغيب فقه المقاصد، ويتمحور الفقه غالباً حول الحيل الشرعية، ويتسع مبدأ سد الذرائع حتى يعطل النصوص الفاعلة، ويتحول الإنسان من الفعل والإنجاز واستشعار المسؤولية إلى الاكتفاء بالحكم على فعل (الآخر)، والتحول أيضاً من السير أمام المجتمعات واستشراف مستقبلها ووضع الأوعية الشرعية لحركتها من خلال الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة والمقاصد المرجوة وتقديم النماذج الرائدة المثيرة للاقتداء، إلى السير وراءها وإيجاد المسوغات والأحكام على ممارساتها.

والحقيقة أن مخاطر الجرائم الثقافية بحق الأمة قد تكون أشد عليها من جـرائم الحـرب التي تمارس من قبل بعض العسكريين والسياسيين، وأن الكـثير من المجرمين الثقافيين أحق بالمحاكمة الثقافية، وعلى الأخص منهم سدنة التخلف والاستبداد السـياسي وفقهاء ومثقفو السـلطان، الذين لا يخلصـون النصح حتى للسلطان، ويقودونه إلى حتفه ودمار الأمة، فهم أشـبه بمشيعي جنازة يرفعونها على رؤوسهم لكنهم ينتهون بها إلى المقابر ويعودوا لاستقبال زبائن جدداً، وليس بأحسن حالاً أولئك الذين يغادرون المجـتمعات بحجج واهية، وينسحبون من المعركة الحضارية، ولا يدركون سنن التدافع التي هي سبيل النمو والارتقاء.

ويمكن القول: بأن التخلف والتراجع والتقهقر وغياب خطط التنمية وانطفاء الفاعلية يمثل مرحلة القصعة وحالة الوهن الحضاري، الذي يلحق بـالأمم على مستوى الأفراد والجماعات، ويمثل مناخاً ينعكس على كل أداءٍ وفهم وتعامل، حتى أنه ينعكس على قراءة التاريخ وتفسير النصوص واسـتنباط الأحكام الشرعية، كما ينعكس أيضاً على مؤسسات التعليم والمكونات الثقافية والفكرية في الأمة.. فالتخلف، إلى جانب كونه واقعاً، فهـو حالة ذهنية، وإصابة فكرية، وقصور فقهي وانطفاء فاعلية، وغياب الفكرة وبروز الغريزة.

ولقد حذر الرسول ﷺ الأمة المسلمة من أن تنتهي إلى مرحلة القصعة، ويتسرب إليها الوهن الحضاري مستقبلاً، فقال: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**.. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: **بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**.. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: **حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**» (أخرجه أبوداوود).

إنها مرحلة القصعة، حيث تصبح جامعاتنا محلاً لاستهلاك (الآخر) وسبيلاً إلى إنتاجه، وتتحول جميع ممارساتنا لتصبح ممارسات استهلاكية تصب في مصلحة (الآخر).

حتى جهادنا يصبح جهاداً استهلاكياً يستخدم فيه (الآخر) تضحياتنا في تصفية حساباته، ويدخلنا المعارك نيابة عنه، سواء بغفلة منا أو باختراق وتواطؤ لداخلنا، ثم نكون أول الضحايا.

حتى عقولنا ومواهبنا وإنتاجنا الثقافي تُستنزف، وتُهجَّر، وتهاجر، لتصبح في خدمة مؤسسات (الآخر).

إنها مرحلة الوهن الحضاري وحالة القصعة، التي أخبر عنها الرسول ﷺ.

ولقـد اسـتغرب بعـض الصحابة هذا التحذير، الذي لا يمكن أن ينتسـب أو يُتصور في واقع الصحابة، وسأل عن معنى الوهن الحضاري (التخلف والسقوط) فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ فقال: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**».

فالإشكالية، أو إشكالية التخلف والوهن، هي نوعية وليست كمية: «**أَنْـتُمْ يَوْمَـئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ**»، ذلك أن من أكبر المؤشـرات عـلى السقوط الحضاري أو الوهن الحضاري يتمثل في بروز إنسـان الاستهلاك، الذي عبر عنه الرسول ﷺ بـ «**حُبُّ الدُّنْيَا**» ذلك الإنسان الذي يعبّ من المتع عبًّا، ويطلق شهواته وغرائزه ويسدر في غيِّه.. وقـد لا نسـتغرب ذلك في هذا العصر المتخلف، كما استغربه الصحابة رضي الله عنهم، فلقد أصبح ميزان التقدم والنمو يقاس بمدى الاستهلاك وبـروز إنسان الاستهلاك، إنسان الحق، الذي لا يرى إلا حقه، دون أن يفكـر ولو لحظة بواجبه.. وشيوع هذا الإنسان ينتهي بالأمة إلى مرحلة تفـتقد معها التوازن الاجتماعي والتنموي، وهذه الحالة تترافق عادة مع غـياب إنسـان الإنتاج، إنسان الواجب، إنسان الفكرة، الذي لم يقدم لمستقبله شيئاً يطمئن إليه.

ومـا لم تفكـر مؤسسـاتنا التربوية والثقافية والإعلامية والتعليمية ومساجدنا وأنديتنا في تصويب المعادلة، واستعادة إنسان الواجب، إنسان

الفكرة، ومحاصرة إنسان الحق فقط، إنسان الاستهلاك وإطلاق الغريزة عن عقالها، فلن تكون هناك تنمية حقيقية، مهما اتسعت مؤسسات الاستهلاك وكثرت مستورداتها.

وهذا الوهن الحضاري، أو مناخ التخلف، يصيب الذهنية وينعكس على الفهم والأداء -كما أسلفنا- وتصبح الكثير من المؤسسات المنوط بها عملية النهوض عبئاً على النهوض، وعقبة في وجه العملية التنموية، ولا أظن أن هناك خلافاً عند معظم المفكرين والباحثين والمنظرين في أن إشكالية التنمية في العالم الإسلامي والعالم تكمن في نظام التعليم ومنهجيته وأدائه، وأن التربية هي التنمية في جماع القول، وأن عامل النهوض والتنمية لا بد أن يبدأ بالعلم والتعليم، وأن نهضتنا وثقافتنا ورسالتنا وحضارتنا انطلقت من ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ ولم تبدأ بأية تكليف آخر، حتى الصلاة عماد الدين، والجهاد ذروة سنامه، فلا عبادة ولا إنجاز ولا مجاهدة ولا تقدم ولا تنمية بدون معرفة، لذلك قال الرسول ﷺ: « اقْرَأْ وَارْتَقِ» فسبيل النمو والارتقاء هو المعرفة.

وبالإمكان القول: بأن التعليم والتربية وكل المؤسسات التي تساعد العملية التعليمية والمعرفية، من الإعلام إلى مراكز البحوث والدراسات إلى معامل ومصادر المعرفة، هي المسؤول الأول عن التخلف، وسوف لا نأتي بجديد، أو نقرر حقيقة غائبة، إذا توقفنا عند هذه الحدود.

وإذا كـــان التعلـــيم والمؤسسات المساندة له هو المسؤول الأول عن الـــتخلف والتراجع والسقوط الحضاري، وإذا كان واقع التعليم وانحسار الأمـــية الأبجدية في تنامٍ، يبقى السؤال الكبير المطروح: لكن أين الخلل في المســـألة التعليمـــية؟ وأين الإشكالية؟ إذ لا مندوحة لنا إذن من المراجعة وإعـــادة الـــنظر في التعليم؛ لأنه سبيل الخروج من نفق التخلف ووسيلة تحقـــيق التنمـــية؛ ولأن الإنســـان، محل التعليم، هـــو وســـيلة التنمـــية وهدفهـــا في الوقـــت نفسه، وما لم نعد للإنسان، ونتعهد تنقية أفكاره، ونحاول تطوير وتنمية خصائصه وصفاته، فلن نقتحم العقبة، مهما حاولنا تطوير أشياءه واستيرادها وتكديسها.

فـــنحن كنا أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب، كما كان الحال عند مجيء النـــبوة، فـــلما أحسنا التعليم والتعلم وأحسنا القراءة الهادفة كنا خير أمة أخرجـــت للناس في مجال البناء والعطاء والشهود الحضاري.. ذلك عندما عرفـــنا كيف نقرأ، ولماذا نقرأ، وكنا نقرأ لنتعلم لا نتعلم لنقرأ، كما هو الحال اليوم، وكان شعار القراءة: القراءة باسم الله الأكرم، بكل ما تحمل تلـــك القـــراءة باســـم الله من دلالات وأهداف وتوظيف العلم للتنمية والارتقـــاء، وكان التخوف الدائم من أن تتحول القراءة عن أهدافها في الخـــير والعـــدل والسلم والرحمة إلى نوع من البغي الذي تسانده المعرفة، ذلـــك أن الكـــثير مـــن الإنتاج العلمي اليوم إنما يتمركز في تنمية أشياء

الإنسان على حساب الإنسان، بل الإمكان القول: إنه يتمركز في معظمه على التكنولوجيا التي تمكّن من الهيمنة والغلبة والسيطرة والتسلط.

فالعلم إن لم يُضبط بمرجعية قيمية وأهداف إنسانية يتحول إلى ظلم وبغي وتفرق وتخلف وكهانات، حتى في المجال الديني، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ (الشورى:١٤).. لذلك كان من دعاء الرسول ﷺ، ومن يسير على قدم النبوة من بعده: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ**» (أخرجه مسلم).

فالمشكلة التنموية إذن تكمن في مناهج التعليم، وطرائق التعليم، وسياسة التعليم، ومؤسسات التعليم، ونوعية التعليم، وأهداف التعليم، فملف التعليم وديمومة النظر فيه وتطوير وسائله وإعادة النظر في سياساته وأهدافه، من أهم متطلبات التنمية، أما إذا أصبح التعليم يعاني من غربة الزمان والمكان، ويعيش خلف المجتمع بعيداً عنه وعن مشكلاته، ويحاصر نفسه وحركته ضمن معطيات عقول أنتجت لعصر آخر ومشكلات أخرى مهما كانت متألقة ومبدعة، فلن يحقق نقلة تنموية نوعية.. ومهما تعددت واتسعت الجامعات فلا تخرج عن أن تكون تكراراً للنسخة الواحدة.. والشيء المحزن حقاً أن التخلف في عالمنا اليوم قد يتناسب عكسياً مع زيادة عدد الجامعات وانحسار الأمية!

فإذا ألقينا نظرة على عدد الجامعات، وعدد الرسائل العلمية، وعدد المجـــلات المحكّمة، وعدد كليات التربية، وعدد كليات المعلمين، وأعداد الهيـــئة التدريســـية، وكمية الإنفاق الحكومي على تواضعها، وتزايد عدد الطلـــبة، والـــترقي في الوسائل المعينة، وزيادة بيوت الخبرة، والترقي في وســـائل الطـــباعة للكتاب المدرسي والإعلام التربوي والأجهزة المساندة للعملـــية التعليمـــية، ومن ثم حاولنا التعرف إلى النواتج والواقع المتخلف البئـــيس، فقد نصاب بالذهول حقاً، وكأن تلك المواطن التي يفترض فيها أن تطلـــق الطاقات، وتدرب على المهارات، وتهيء مناخ الإبداع، وتبصِّر بالمشكلات، وتعالج قضايا الأمة، تحولت لتكون هي مشكلة الأمة.. وبدل أن تســـاهم بدفـــع عجلـــة التنمية واستبانة سبلها تتحول إلى مؤسسات لـــتكريس التخلف وطرد الخبرات وقتل الإبداع وتحنيط التطلعات، وقد يكون إنجازها الوحيد إيجاد طبقة من أصحاب الألقاب.

إن علـــل التعليم والتعلم كثيرة، ومتوضعة، ومساحتها أكبر من أن تســـتقرأ اســـتقراءً كاملاً في هذه العجالة، ولعلنا نقول: إن التعليم الذي يُفترض فيه أن يعالج مشكلات الأمة وإشكاليات الحياة وتطورها ويسهم في تنميـــتها، انتهـــت إليه مشكلة الأمة بكل تعقيداتها وتداعياتها، لذلك فالعـــبء ثقيل، ولا يحتاج الإنسان إلى جهد كبير ولا إلى تأمل في العمق البعـــيد حتى يبصر المشكلة التعليمية، وحسبنا أن ننظر إلى الإنتاج العلمي

والتعليمي في مجال تنمية الموارد البشرية وتوفير الاختصاصات المعرفية المطلوبة لنرى أن التعليم في تراجع، فكلما تقدمت وسائله واتسعت مدارسه ومعاهده ازداد تخلف الأمة واشتدت حاجتها إلى (الآخر)!

ولو قمنا بعملية تعداد نسبي لمن يحملون ألقاباً علمية أكاديمية، أو ألقينا نظرة على حجم الرسائل الجامعية للدراسات العليا في بلد واحد من بلاد العالم الإسلامي الذي يعج بالمال والإمكانات والجامعات، وما انتهى إليه حالها من الشلل وعدم الحراك، لأصبنا بالذهول (!) ولو حاولنا قراءة عناوين الرسائل وموضوعاتها لما احتجنا كثيراً لإدراك أسباب التخلف الحقيقية، وكيف أن جذورها تكمن في المسألة التعليمية وتغذيها، لتصبح المسألة التعليمية تخلفاً مستداماً.

لقد حققت الألقاب والمناصب الأكاديمية المال والمنصب والسمعة لأصحابها، لكنها لم تحقق لأمتها إلا القليل، ولقد منحت الرسائل الجامعية الألقاب لأصحابها، لكنها في معظمها لم تشكل حراكاً ثقافياً، أو تنموياً، فهي أشبه، بحجمها وقيمتها، العملة الزائفة؛ هي أحمالٌ وأحجام لكنها لا تصرف شيئاً، وكان يكفي عشر معشارها، لو أُدركت أسباب القصور والتخلف وعُرفت مواطن الخلل والتقصير في الجوانب المتعددة، لتحقيق نقله نوعية للمجتمع والأمة.

نعاود القول: بأن الإشكالية ليست في عدد الجامعات، ولا عدد الرسائل الجامعية، ولا قلة الخريجين، ولا عدد المجلات المحكّمة، ولا عدد

كليات التربية وإعداد المعلمين، كما أنها ليست في كمية الإنفاق الحكومي، وإن كان قليلاً بالنسبة لجوانب البذخ والهدر فيما لا ينفع وقد يضر ويعود على الأمة بالخبال، وإنما الإشكالية في حقيقتها يُمكن أن تُوصف بأنها أزمة ذاتية، أو علة ذاتية، في التعليم ذاته.. هي في الذهنية والمنهجية والنوعية.

صحيح بأن الكثير من العلل الذاتية يجيء ثمرة لإفرازات مجتمعية؛ لأن التعليم ليس منفصلاً عن حياة الأمة وواقعها ومؤسساتها، ابتداءً من الأسرة وانتهاءً بالدولة، يحمل أثقالها وأوزانها.. لكن الصحيح أيضاً أن التعليم هو العلاج وسبيل الخروج الوحيد، فإذا حمل التعليم أدواء المجتمع وإصاباته وعجز عن تجاوزها أصبحت الأمة كالغاصّ بالماء، ذلك أن إصابات المجتمع في سائر المجالات تمثل حالة الغاص بالطعام الذي يدفعه ويعالجه بالماء، أما إصابات التعليم وعجزه عن العلاج والتنمية فغصته بالماء نفسه، تلك الغصة التي قد تقضي على حياة صاحبها.

والتفكير المطلوب والملح: كيف يمكن أن تنفلت المسألة التعليمية، وتنفك عن مناخ التخلف، وترتقي إلى مستوى العلاج؟ وهذا لا يمكن أن يتحقق ما لم نبصر العلل الذاتية للتعليم، ونحاول تخليص التعليم منها، ومن ثم نحصنه ما أمكن ضد تأثير تخلف المجتمع ليتحرك لعلاج مشكلة التخلف حركة الطبيب المحصن بين أصحاب الأمراض السارية.

ولعلـــنا نأتي على ذكر بعض هذه العلل، علها تشكل بعض النوافذ وتبصٍّر بالأسباب المنتجة لحالات التخلف.

- وقد يكون في مقدمة هذه الإصابات غياب مراكز البحث العلمي ومراكز الدراسات والمخابر، ومراكز المعلومات، ذلك أن هذه المؤسسات هي التي تنتج المعرفة، وتختبرها، وتجربها، وتتيقن من صدقها، ومن ثم تأتي المدارس والمعاهد والجامعات لتكون مراكز لنشرها وتسويقها وتعليمها.. إن التنمـــية الحقيقـــية تـــبدأ من مراكز البحث العلمي، مراكز الكشف والملاحظـــة والإبداع والابتكار وإطلاق المواهب والمنافسة باتجاه كشف الحقيقة، التي تطرح الإشكاليات التنموية والمجتمعية والتعليمية، وتستخدم في إدراكها والإحاطه بعلمها التخصصات والشعب المعرفية المطلوبة كلها، وتخرج بحلول تتحول إلى الجامعات وتنتهي إلى المجتمعات، لترتقي بأدائها، وتبصرها طريقها.

ولا أعـــتقد أننا أدركنا بعد وظيفة مراكز البحوث.. فعملية إنشائها عـــندنا - وهي هياكل للتوظيف وتسجية الأوقات- لا تخرج عن كونها تقليداً (للآخر)، فهي أقرب للمتاحف والمخازن والمجالس والمضافات منها لمراكز البحث العلمي، مع التسليم بأن للمتاحف وظيفة علمية وتعليمية في أنظمة التعليم المتقدمة والتنمية الاجتماعية.

- إن التعلـــيم عندنا يتمحور حول التلقين والحفظ وشحذ الذاكرة بعـــيداً عـــن الـــتفكر والمقارنة والتمييز وتنمية التفكير، هو تعليم يخرِّج

ببغاوات، عقولهم في آذانهم، يساهم بامتداد حياتهم الطفلية، أو يشكل مداً لطفولـــتهم؛ لأن الذاكرة والحفظ أولى وظائف العقل، والتفكير والمقايسة والمقارنـــة أعـــلى مراتـــب التفكير، فالإصرار على الحفظ والذاكرة يعني الـــتوقف عـــند أولى مراتب العقل، وعائقاً يساهم بطرد أصحاب العقل والتفكير، وبذلك ينقلب التعليم من حل إلى مشكلة.

- كمـــا أن واقع التعليم عندنا يقوم على التكديس والحشو والتقليد والـــدوران في عقـــل الســـابق، بعيداً عن تنمية روح الإبداع والكشف والملاحظة والتجربة والتبصر واكتشاف الخطأ، فكيف والحالة هذه يمكن للتعليم أن يسهم بعملية التنمية، إن لم نقل ينمي التخلف؟

- وكـــيان التعلـــيم عـــندنا في كـــثير من أحواله يقوم على النقل والـــتكديس والاستيراد والارتهان والتبعية والتقليد، بعيداً عن بناء القدرة على الاستنبات وبناء الشخصية الاستقلالية.

- والتعليم عندما ما يزال يتجاهل أهمية التخصص وتقسيم العمل وتنمية التخصـــص واحـــترام التخصص وتقدير الخبرة.. ما يزال صاحب الحماس والصـــوت الأعلى والشخصية المنبرية هو الشخص المميز والمعلم المميز في المدرســـة والجامعة والمجتمع.. والطالب الأخرس الأطرش الأحفظ الساكن القابل بكل ما يلقى إليه دون نقاش أو حوار أو استفهام هو الطالب المميز، فكيف يسهم هذا الطالب وذلك المدرس في عملية التنمية والارتقاء؟

بل لعنا نقول، بكل أسف: إن واقعنا يستهين بالخبرة والتخصص، فكم من المتخصصين في عالمنا الإسلامي، وفي نطاق العاملين للإسلام، في الطب والهندسة والكيمياء والعلوم، بكل أنواعها، غادروا تخصصاتهم ليصبحوا خطباء ووعاظ، دون أن يؤهلوا لذلك، وهم بذلك يقدمون النماذج الرديئة للاستهانة بالمعرفة والتخصص العلمي أمام الجيل، ويعلنون عن عجزهم في السياق العلمي وجعل المعرفة في خدمة أهداف أمتهم، ليتحولوا إلى إيقاعات من العويل والبكاء على الأمة التي شيعوها إلى المقابر.

- والسياسات التعليمية والمناهج هي أقرب للشعارات والرغبات، بعيداً عن الخطط والبرامج، التي تستجيب لحاجات الأمة وتبصِّر بكيفية التعامل مع مشكلاتها وفهم معادلاتها الاجتماعية والتطورات الإقليمية والعالمية من حولنا.

حتى مناهج العلوم الشرعية، التي تعتبر أم العلوم وحاديها بشكل عام، والمفترض فيها بعد هذا الرصيد والتجارب والتاريخ والمخزون التراثي، فإنها تقوم في معظمها على التلقين والحفظ بعيداً عن تنمية الشخصية وبناء روح المبادرة والاستقلال والاجتهاد.. إنها تتمحور، إلى حدٍ بعيد، حول حفظ النص والحديث عن عظمته ودوره في نقل المجتمعات وتنميتها

والارتقـــاء بها، بعيداً عن الحديث عن فهم الاجتهاد في تنــزيله وكيفية تطبـيق النص وإعماله في واقع الحياة، وبذلك ينتهي الطالب إلى نوع من الفصـام الخطـير، الذي يؤدي للعطالة إن لم يؤد إلى الارتكاس، بالنسبة للعاجـز عن التمييز بين الصورة والحقيقة، ويرتسم أمامه السؤال الكبير: أين فعل هذه النصوص في واقع الأمة البائس المتخلف؟

حـتى دراسـة السيرة النبوية، وعظمة فعل القيم الإسلامية في حياة الناس، لا يخرج عن ذلك، وكأن هذه العلوم أصبحت للتبرك والخروج من العهدة الشرعية.

- وفي الوقت الذي يقوم فيه التعليم في الدول المتقدمة على التدريب وتنمية المهارات، ويرتقي بالعلوم الإنسانية والاجتماعية النظرية في أصلها إلى المجـالات التطبيقـية، حيث لم يعد يقتصر التدريب والتطبيق وتنمية المهـارات على العلوم التجريبية، نرى في واقعنا تحول العلوم التجريبية إلى معارف نظرية وتجريدات ذهنية.

- وقد يتحول التعليم بشكل مباشر أو غير مباشر إلى طرد الخبرات وتهجـير الكفـاءات المتمـيزة عندما يضيق بها ولا يتيح لها مناخ النمو والامـتداد، ولا يوفر لها مراكز البحوث والدراسات، ولا يمنحها قيمتها الاجتماعية.. وبدل أن تكون الخبرات والمعارف والتخصصات والبحوث سـبيلاً لـلخروج مـن نفق التخلف وإحداث التنمية تحاول هي الهجرة

والخروج من مجتمعات التخلف.. وعندما لا يحترم الاختصاص، ولا تقدر المعـــرفة، ولا يُعرف للخبراء حقهم، فمن الطبيعي أن يهجروا منابر العلم والمعرفة، ويتأسفوا على سنوات عمرهم، ويتحولوا إلى شخصيات منبرية تخاطـــب الجمـــاهير والعامـــة، وبذلك يصيرون أدواتاً لتكريس التخلف والمساهمة برحلة التيه والضياع وندب الحظ على الإنفاق على مؤسسات التعليم العقيم التي لا تنجب.

وطالما أن التعليم يفتقد شحذ الذهن وإثارة الفاعلية وتنمية المهارات وبـــناء الشخصـــية الاستقلالية وتأسيس قيم الحرية واستشعار المسؤولية وتأصـــيل قـــيم الشـــورى والحـــوار والمثاقفة والتدريب على النظر والاجـــتهاد والإبداع، فسوف يبقى خارج الحياة، ويتحول من حلٍ إلى مشـــكلة، ويصـــبح عبئاً على الأمة، يستنـــزف مواردها المالية، ويعطل طاقاتها البشرية.

ومـــا لم نـــدرك أن الاستبداد بكل أشكاله هو ثمرة التخلف، أو هو الـــتخلف حقيقـــة، وعدو التنمـــية بكل أبعادها، فســـوف نبقى نراوح في أماكنـــنا، ونقطـــع أحذيتنا، ونتوهـــم بأننا نتقدم ونقطع المســـافات صوب أهدافنا.

وفي تقديـــري أن علـــة العلل، في موضوع فشل مشروعات التنمية واتساع فجوة التخـــلف وعجز مؤسســـات التعليم عن تقديـــم الحل،

هي عقلية الاســتبداد بشكل عام، والاستبداد السياسي بشكل خاص..
ولا أقصد بذلك الاستبداد السياسي الذي تمارسه بعض السلطات الحاكمة المتسلطة في العالم الإسلامي والعالم، وحتى المعارضة، وإنما سيطرة مناخ الاستبداد السياسي والاجتماعي والتربوي والتعليمي والإداري والأسري، ذلك أن الإشكــالية في ذهنية الاستــبداد، وإن كان الاستبداد السياسي أكثر ظهوراً، وأعظــم تأثيراً، وأشمل مســاحة، وأشــد أثراً على سائر الأنشطة الحياتية.

ونستطيع القول: إن شيوع الاستبداد، وانعدام الحرية، وغياب تكافؤ الفرص، وتقديم أهل الثقة والولاء والحماس على أهل الخبرة والاختصاص، هــي التجســيد العمــلي لذهنية التخلف، والتمظهر الواضح لمقوماته، فالتخلف من لوازمه الاستبداد، والاستبداد من لوازم التخلف؛ ولا يستبد عملياً إلا متخلف يعاني من عقدة النقص، ولا يختار مؤسسات الاستبداد وينــتهي إليها إلاّ المتخلف، يستبد ليستر عورته؛ فلا يتخلف إلا مستبد، لعجــزه عن إدراك الأمور والإحاطة بها، وحقده على المتميزين ورغبة في الثأر منهم.

والإنسان السوي، المفكر المتبصر العالم المثقف، لا يستطيع الاستبداد ولا يحســنه.. والمستبد يحقد بطبيعة تشكيله على كل متعلم ومتخصص

ومفكـــر ومثقف وعالم وفهيم، وقد تصل به الأمور إلى التصور بأن العلم والمعـــرفة والتخصص أعداء وجوده واستمراره وقيادته.. ولعل الكثير من الاســـتبداد يورثه الحقد على الآخرين، ومحاولة التعويض بالسلطة والمال لتغطية مركب النقص الذي يعاني منه المستبد.

وجمـــاع القـــول: بأن الاستبداد أعلى أنواع التخلف، وهو نقيض التنمية والنهوض.

فالمســـتبد هـــو المتخلف في كل شيء إلا في تنمية وتوفير الأدوات والأســـاليب والفـــنون والتكنولوجيا المتقدمة، التي تمكّن له من الاستبداد والتجســـس على خصومه.. إنه متقدم في تنمية وسائل التعذيب والهيمنة والتجســـس والـــتمكين للاستبداد؛ ويأتي في ذلك في الطليعة من الدول المتقدمة.

لذلـــك، وفي هـــذا المـــناخ الرهيب الرعيب، سوف يتحول التعليم ومؤسساته إلى مواقع خلفية، تنعدم فيها الحرية، وتقتل منها روح المبادرة والإبـــداع والتدريـــب وتشكيل المهارات، ويسودها التحميد والتمجيد والـــتظاهر لتأكـــيد الـــولاء.. وقد لا نستغرب في هذا المناخ أن تتحول المـــدارس والجامعات إلى أبواق للسلطان، تمارس رجع الصدى لعبقريته، وتصبح أقرب لممارسة الوقيعة وإفساد الضمائر والتقاط العجزة والفاشلين،

واســتغلال أحقــادهم وعقد فشلهم وتعويضهم بإغرائهم بالانخراط في مؤسسات الاستبداد للتسلط على الناس.

ولعــل من الأمور الطريفة هنا أن نذكر أن بعض زعماء الاستبداد السياســي زار إحــدى الجامعــات، وجُمع له الطلبة ليمارسوا الهتافات لعبقريته وإنجازاته، وليصفقوا لزعامته، فما كان منه إلا أن أعلن عن أعظم الإنجازات الجامعية، وهي تنجيح الراسبين للعام الذي كانت فيه الزيارة(!) فكيف لمثل هذا التعليم أن يساهم بالتنمية، وكيف لمثل هؤلاء المتعلمين أن يقودوا عملية التنمية؟

ولــيس ذلك فقط، وإنما الإقدام على اقتحام التقاليد الجامعية وكسر الموازين والمعايير العلمية، وخرق شروط القبول وتجاوز معدلاته، وإدخال مجموعات من الموالين، تحت مسوغات محزنة، وذلك بإضافة درجات إلى مجامــيعهم بحجــة انشــغالهم بالنضال الوطني؛ هذا عدا عن المداخلات والتهديدات بضرورة نجاح هؤلاء الأبطال القوميين! ليقوموا بخدمة بلدهم وتنميتها.

وقــد لا تكون هذه الممارسات مستهجنة في مناخ الاستبداد والتمكين له.. وإذا أجرينا مسحاً سريعاً واستقراءً تاريخياً، نجد أن معظم المستبدين كانوا من المتخلفين والفاشلين، علمياً ودراسياً، والحاقدين على كل ناجح ومتميز.

نعــود إلى القــول: إن جــرثومة التخلف هي في الاستبداد، بكل

أشكاله، ولا أدل على ذلك من أن الكثير من الطلبة الذي يفلتون من مناخ الاستبداد ويذهبون لمتابعة دراستهم في مناخ الحرية ومؤسساته العلمية يكونون في مقدمة الطلاب، تفوقاً وإبداعاً وتميزاً.. فالمشكلة ليست في الكفاءات وإنما في مناخ إعاقتها ووسائل قتلها.

وبعد،

فهذا الكتاب يمكن أن يشكل لبنة في البناء التنموي، الذي لابد أن يرتكز إلى المعرفة والعلم، كما أنه يعتبر محاولة للانفكاك من واقع التخلف إلى حد ما، والتحول من عملية الإحساس بإشكالية التخلف إلى محاولة إدراك أبعادها، ودراسة الأسباب المنشئة لها، وتحديد الموقع المسؤول عن استمرارها، والدعوة للنظر في كيفية التعامل معها، ووضع البرامج والخطط لردم فجوة التخلف ومعالجتها، والتأكيد أن التعليم هو سبيل الخروج ولا سبيل سواه، وأن عجز التعليم عن العطاء إنما هو لأسباب خارجة عنه، فلا مناص من النظر فيها ومعالجتها.

ذلك أن معظم المفكرين والباحثين والمنظرين يرون أن إشكالية التنمية في العالم الإسلامي والعالم تكمن في نظام التعليم وآليات التربية والتنشئة، فالمسألة تكاد تكون محسومة، لكن المشكلة - فيما نرى- أن واقع التعليم وآلياته وسياساته هو ثمرة وإفراز لذهنية الاستبداد، الذي يشكل قمة التخلف وأساسه، لكن هذا لا يمنع من أن نقول:

إن فســاد العملية التعليمية هو الذي أورث ذهنية الاستبداد، فهو مقدمة ونتيجة في الوقت نفسه.. ويبقى التعليم والتربية هو التنمية.

ومهمــا يكــن من أمر، فإن المؤسسات المعرفية عامة، والسياسات التعليمــية الهادئــة المبصرة، قادرة على عزل مواقع الاستبداد وأثرها عن ضــمير الأمة.. وفي تاريخنا الممتد الكثير من فترات التخلف، التي كانت تمثل تحدياً واســتفزازاً، استطاعت مؤسســات التربية والتعليم أن تحوله إلى أداة لإيقــاظ الأمــة وشــحــذ فاعليتها، وجمع طاقاتها، ودفعها إلى التجاوز والنهوض.

لقــد كــان لمؤسســات التعليم تاريخياً الدور الأساس في عمليات النهوض.

ولا نــزعم بأنــنا في هذا الكتاب قدمنا الحل للإشكالية، لكننا على الأقل عمقنا الإحساس بها، الذي نأمل أن يقود إلى الإدراك، ويهدي إلى سبيل المعالجة.

والله المستعان.

مقدمة

الحمـــــد لله، الذي خلق الإنسان، علّمه البيان، وله الحمد أنْ رفع الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات.

والصـــــلاة والسلام على رسول الله المبعوث معلّماً للناس أجمعين، ورضي الله عن صحابته، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــد،

فـــإنّ هناك اتفاقاً من قبل علماء المسلمين ومفكريهم على أنّ العالم الإســـلامي يعيش أزمة في تاريخه الحديث، تتفاوت حدّتها وتختلف آثارها من مجتمع إلى آخر. وقد يكون من السخف أن نُطالب بتقديم دليل ذلك، إذ الواقـــع خـــير شاهد على ما نقول، وفي العيان غُنْية عن البيان؛ فالأمة الإســـلامـــيّة انحدرت إلى انحطاط بعد رقي، وإلى جهالة بعد علم، وإلى ضـــعف بعـــد قوة، وإلى تشتت بعد وحدة. وعليه، فإنّ العالم الإسلامي أمامـــه العديد من المشكلات والعوائق التي عليه أن يتجاوزها ويزيلها إذا أراد أن يُســـجِّـــل شـــهوده الحضاري من جديد، ويسترد مجده الريادي الـــذي كـــان لأســـلافه، الذين خلف من بعدهم خلف فرّطوا في تلك الحضارة وأضاعوها وما رَعَوْها حقّ رعايتها، فكان جزاؤهم أن أدركتهم ســـنة الحـــياة، وضُرب عليهم التخلف، وسُـــلبوا ما كان لأسلافهم من

بمجـــد مؤثـــل، وحضـــارة رائعة. فانتقلت الدورة الحضارية من العالم الإســـلامي إلى العالم الغربي، فرعوها حقّ رعايتها، فتحققت لهم الهيمنة والسيطرة على العالم كـــلّه حتى اليوم.

ثـــمّ دبّ الأمـــل في العقود الأخيرة، وبدأ التفكير في كيفية تنمية العالم الإسلامي، بعد أنْ فقد معظم من بهرتهم الحضارة الغربـــيّة الأمل في اســـترداد الحضارة للعالم الإسلامي من جديد، واستسلموا لهذه الأوهام ورضـــوا أن يكونـــوا من الخوالف. فما كان أن ظهر فتية آمنوا بضرورة العمل من أجل استئناف نهضة حضارية إسلاميّة، وازدادوا ثقة بذلك، لأنّ تـــاريخ أمتهم قد سجّل حضارة نعِم الناس بها زمناً لا يُستهان به في عمر الحضارات الإنسانـــيّة.

فهؤلاءِ الذين دبّ فيهم الأمل من أجل استئناف النهوض الحضاري بـــدأوا بتشخيص الأزمة التي تعيشها الأمة، والعوائق المانعة من التنمية في العالم الإسلامي، حيث إنّ تشخيص الأزمة تشخيصاً سليماً وموفقاً يحدِّد نوعـــية العلاج تحديداً سليماً وموفقاً أيضاً. فهذا على خلاف ما لو وقع خطـــأ في التشـــخيص، حيث إن ذلك يستتبع خطأً في التحديد؛ فتزداد الأزمة تجذراً من حيث أريد اجتثاثها.

فذهب بعضهم إلى القول: بأنّ الأزمة **أزمة عقيدة**، إذ المتأمل في أحوال العالم الإسلامي يجد أنّ السواد الأعظم منه يتبنى عقيدة متصفة بالتقليد، أطفأ فاعليتها طول الدهر، وأفرغت من محتواها، ففقدت بذلك حيويتها وأثرها في تحريك الإرادة ودفعها نحو التحضّر والرقي، حيث إنّ الأمة عموماً قد أصابها

انحـــراف عقـــدي خطـــير تسبب في تدهورها الحضاري وتخلفها العلمي وانحطاطهـــا المعـــرفي. بينما ذهب آخرون إلى القول بأنّ الأزمة **أزمة فكرية** تـــتمـــثل في تعطـــيل الفكر الإسلامي عن إنتاج مناهج وبيان سبيل التنمية والنهضـــة الحضارية، إذ أصابت العقل المسلم نكسة؛ فارتد من الإبداع إلى التقلـــيد، ومن الحيوية إلى الخمول، ومن الإنتاج إلى الاستهلاك. ولذا، فإنّ الوضـــع الحالي للأمة الإسلاميّة وما عليه من تخلف فكري، وضعف معرفي، وفقر علمي، واضطراب مرجعي، سببه الأساس أزمتها الفكريّة، وعليه، فليس أمـــام المســـلمين إنْ هم أرادوا تنمية علمية ويقظة حضارية إلا أنْ ينهضوا بالفكر، ويستأنفوا عملية الاجتهاد والإبداع من جديد.

وذهب فريق ثالث إلى تشخيص أزمة الأمة بأنها **أزمة مالية اقتصادية** حـــادّة نتج عنها انخفاض في نِسَب النموِّ، وانعدامها أحياناً، وانتشار كبير للفقـــر، ففقدت كثير من بلدان العالم الإسلامي تبعاً لذلك استقلاليتها في اتخاذ القرارات والتسيير الداخلـــي لشعوبها، فأدت هذه الأزمة إلى تخلف العـــالم الإســـلامي وانحطاطه الحضاري بعد أن كان قوّة اقتصادية ومالية تسيِّر العالم وتسوسه. ثم إنّ هذه الأزمة المالية دفعت بالأمم الإسلاميّة إلى التداين الربوي من الأمم الغربيّة مما زادها وهناً على وهن[1].

---

(١) يمكن استنتاج هذه الآراء المتنوعة في تحديد أزمة العالم الإسلامي، حيث إنّ المتتبع للكتابات في هذا الصدد يجد عناوينها معبّرة عن هذا التنوع.. وتحديد الأزمة الرئيسة للأمة الإسلاميّة لا يعني بالضرورة إقصاء بقية الأزمات أو إلغاؤها، ولكن هذا التحديد من حيث الأولوية في التقديم والـــخطورة في المآل.

وأياً ما كان الأمر، فإنّ هناك جملةً من الأقوال والآراء المتعددة حول تشـــخيص أزمة العالم الإسلامي، وذلك تبعاً لتعدد المشكلات والأزمات التي أرخت سدولها عليه منذ أمد بعيد، وطال مكثها، إذ لبثت فينا عمراً طويـــلاً ولم تنجل بعد. وعليه، فإنّ المسلم المعاصر غالباً ما يجد نفسه في حـــيرة أمـــام هذه الآراء المختلفة والكم الهائل من المشكلات والأزمات الجاثمـــة عـــلى صدر هذه الأمة، فإذا حدثته نفسه يوماً ما بنهضة تنموية حضـــارية إسلاميّة، فلا تجد هذه النظرة التفاؤلية لقلبه مدخلاً ولا لفكره متسعاً، هذا إنْ لم يعدّها بمجرّد أوهام أو أضغاث أحلام. ولعلّ سبب هذه الحـــيرة لدى كثير من أبناء هذه الأمة مرده إلى كثرة الكلام عن مشكلة العـــالم الإسلامي وأزمته، فضلاً عن تعدد الآراء وكثرتها في هذه المسألة، حيث إنّ الفرد المسلم استقر في وعيه الباطني أنّ العالم أو الأمة الإسلامية عـــبارة عن مجموعة من الأزمات والمشكلات. فهذا الوعي الباطني صنع غشـــاوة غلـــيظة على عقول المسلمين صعبة الاختراق، ولذا فمن راودته فكرة النهوض الحضاري والتنمية، قابلها بهذا الوعي الباطني، وأنّه لا أمل في استئناف حضارة إسلامية أمام هذا الكم الهائل من الأزمات المتراكمة، بعضها فوق بعض، التي أصابت شتى نواحي حياة الأمة الإسلامية.

ومهمـــا يكن من أمر، يمكن القول: إن التعليم يمثّل الأزمة الأم في العالم الإسلامي، وذلك لسببين مهمين:

أحدهمـــا أنّ الصـــلاح والفساد في الأرض مبني على صلاح وفساد الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ

﴿أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١).

ودليل الخطاب[1] لهذه الآية يفيد أنّ ظهور الصلاح في البر والبحر أيضاً إنما يتحصل بما كسبت أيدي الناس. فإذا كان صلاح العالم مرهون بصلاح الإنسان، وفساده بفساده، فلا أظنّ أنّ هناك وسيلة لإصلاحه وتهذيبه وتثقيفه وتنمية قدراته أفضل وأولى من تعليمه.

والآخر أنّ إصلاح الإنسان بتعليمه سوف يؤدي حتماً أو غالباً إلى الخروج من الأزمات الأخرى، حيث إنّ المجتمعات الإنسانيّة إذا تمّ إصلاح أفرادها وإرشادهم وتوجيههم بالتعليم، فسوف يؤدي كلّ فرد دوره الميسّر له، وبذلك تصلح العقول، وتستقيم الأفكار، وتنهض الأمة، وتخرج من المأزق الحضاري، الذي أحاط بها من كلّ حدب وصوب.

وهذا مما يوجب الاعتناء بأمر التعليم وإعطائه الأولوية في الاهتمام بالنسبة لحاضر العالم الإسلامي؛ لأنه مدخل أساس لتحقيق تنمية حضارية شاملة، ذلك أن الأزمات الأخرى تبع للتعليم في حالة صلاحه أو فساده؛ فالعقيدة بلا علم ولا تعليم تقود إلى الوقوع في البدع والخرافات والشرك، والعقل بلا تعلم يصاب بنكسة فكرية وضعف معرفي، والمال بلا علم ولا تعلم يؤدي إلى ضياعه وفقدانه لعدم توفر حسن سياسة ذلك المال

---

(١) دليل الخطاب هو ما يسميه الأصوليّون «مفهوم المخالفة» وتعريفه: «**إثبات نقيض حكم المنطوق به للمسكوت عنه، أو دلالة اللفظ على انتفاء حكم المنطوق عن المسكوت عنه**»، انظر: الجويني، أبو المعالي: **البرهان في أصول الفقه**، تحقيق عبد العظيم محمود الديب (مصر: دار الوفاء، ١٩٩٢م) ١/٢٩٨-٢٩٩.

نتــيجة الجهـــل ونــبذ التعليم. وهكذا الأمر بالنـــسبة للبقية المتبقية من الأزمات، مما يؤكد أنّ أزمة التعليم أصل وغيرها فرع، ولا يخفى على كلّ ذي لبّ أنّ الأصل مقدم على الفرع، والفرع تابع للأصل.

ومـــن ثّـــم، يمكن القول: لابد من الاهتمام بالعلم والتعليم، بوصفه مدخلاً ضرورياً للتنمية، ونقطة انطلاق لا مفر منها للتخلّص من أزمات ومشكلات العالم الإسلامي كلّها، لذلك فلا غرابة أنْ يعدّ التعليم الأزمة الأم، ومـــا سواه تبع له. ناهيك عن أنّ عمليّة تنمية العالـــم الإســـلامي وما يبذل في سبيل ذلك من جهود، لن تجدي نفعاً إذا لم تعن بأمر التعليم وتنميته قبل غيره من مجالات التنمية الأخرى.

زد عـــلى ذلـــك، أنّ موضوع التنمية يعدّ من أهم الموضوعات التي تشـــغل الناس أفراداً وجماعات، شعوباً وحكومات. والسبب في ذلك أنّ الـــنّاس كلّهم يسعون جاهدين للتنمية، كلّ على شاكلته، ولا يغفل عنها إلا مـــن لا خلاق له في الدنيا ولا في الآخرة. فالهدف الأساس للتنمية هو تحسين حياة البشر والازدياد من ذلك على حسب قدرات الناس وعزائم كـــلّ فـــرد، وعلى قدر أهل العزم تكون التنمية. ومن ثَم، فلا غرابة أنْ تكـــون التنمـــية عملية حضارية، لكونها تشمل مختلف أوجه النشاط في المجتمع بما يحقق رفه الإنسان وكرامته، وهي أيضاً بناء للإنسان وتحرير له وتطويـــر لكفاءاتـــه وإطـــلاق لقدراته، كما أنها اكتشاف لموارد المجتمع وتنميتها وحسن الاستفادة منها، بحيث تعود بالنفع للمجتمعات الإنسانيّة، دون المساس بسعادتها وأمنها.

ونظـــراً لأهمـــية التنمـــية، فإنها باتت تشغل حيّزاً كبيراً من كتابات المهتمين بأمر التطوير والرقي والازدهار والنهضة في المجتمعات الإنسانيّة، ولـــيس الاهتمام بها لدى شعوب العالم الثالث، أو ما يعبّر عنه بالشعوب النامـــية، فحسب، بل إنّ الشعوب التي حققت تطوراً وازدهاراً وشهدت نهضـــة كبيرة في عصرنا، والمتمثلة في العالم الغربي لا تنفك عن الاهتمام بأمـــر التنمية، اهتماماً بكيفية الزيادة في حجمها، كماً وكيفاً، والمحافظة عليها أيضاً، ولو بحجبها عن الآخرين.

فهذه تقريباً بعض اللمحات المتعلّقة بالتعليم وإشكالية التنمية في العالم الإسلامي، والتي آمل أنْ تسهم هذه الدِّراســـة في إثراء البحوث ونموّها، كمـــاً وكـــيفاً، فـــيما يتعلق بموضوعي التعليم وإشكالية التنمية في العالم الإسلامي، وأنْ توجه الباحثين والدارسين نحو الاهـــتمام بقضـــايا التعليم ومشـــــكلاته، إذ التعلـــيم شرط أساس للتنمية وتحقيق نهضة حضارية إســـلامية من جديد، بل إنّ ذلك كلّه لا يتم إلا إذا كانت الانطلاقة من إصلاح التعليم وتطويره وتنميته[1].

---

(١) أود تنبـــيه القارئ بدأ أنني قصدت في هذه الدّراسة إلى الاعتماد على الكتب العربيّة والإسلاميّة، قديمها وحديثها، ولا ألجأ إلى غيرها إلا عند الضرورة، إيمانا بأنّ عملية التنمية التعليمية والنهوض الحضاري لابد أنْ تكون مستقلة لا تبعية فيها، كما سيرد في البحث، ولا يتحقق ذلك إلا بالاعتماد على ما في تراثنا، وليس على تراث غيرنا. وهذا الكـــلام لا يعنـــي إقصاء التراث العلمي والمعرفي للآخرين، بل يمكن تقريبه للتداول الإسلامي والاستفادة منه، فلا تكون له الهيمنة والغلبة على تراثنا.

المعرفة مفتاح التنمية

يلاحظ الناظر في تاريخ الأمم، قديمها وحديثها، أنّ تحضرها ورقيِّها كان مرتبطاً بالعلم ارتباطاً وثيقاً، كما أنّ تخلّفها وانحطاطها كان مرتبطاً بالجهل ارتباطاً وطيداً. ولذا، فليس غريباً أنْ يرتبط التحضر والتقدم بالعلم، والتخلف والتدهور بالجهل. فبالعلم تحضرت أمم وتركت تراثاً شاهداً على مدى مبلغها من العلم والتحضر والرقي، وبالجهل وعدم الاعتناء بالعلم والتعليم تخلفت وتدهورت أمم، فلم تذكر في التاريخ إلا موصومة بالتخلف والبداوة والهمجيّة. ناهيك عن أنّ الأمم التي أصيبت حضارتها بتراجع[1]؛ فوقعت في مأزق التخلف والجمود والانحطاط، لم يكن أمامها سبيل للنجاة من ذلك كلّه إلا بالمعرفة.

ومن ثَم، فإنّ التعليم ليس سبيلاً مهماً للتحضّر فحسب، بل يعدّ أيضاً سبيلاً للنجاة والخلاص من المأزق الحضاري الذي تتردى فيه أمة من

---

(١) المقصود بالتراجع الحضاري: الداء الذي يصيب أمة من الأمم فتتردى في الانحطاط والتدهور والانتكاس بعد أنْ شهدت رقيًّا وازدهاراً وتقدماً، وهذا هو حقيقة الداء الذي أصاب الحضارة الإسلاميّة. ولذا، فقد حدد الشيخ علي عبد الحليم محمود مفهوم التراجع الحضاري الإسلامي بقوله: «نعني بالتراجع الحضاري للمسلمين ما وقعوا فيه من انتكاس حضاري، بعد أن كانوا بحضارتهم في مقدمة ركب الإنسانيّة». انظر: محمود، علي عبد الحليم: **التراجع الحضاري في العالم الإسلامي وطريق التغلب عليه** (مصر: دار الوفاء، ١٩٩٤م) ص٧٥.

الأمـــم بعد أن شهدت تطوراً ورقيًّا وازدهاراً. وعليه، فـــ«يكون الجانب العـــلمي وحـــده مـــدار القياس لدرجات التقدم والتخلف بين الأفراد أو الشعوب»[1].

ولذا، فلا غرْو أن يهتم الباحثون والدارسون للحضارات ونموِّ الأمم وتطورهـــا بالنظر إلى التعليم، تأليفاً وبحثاً ودراسة، بياناً لأهميته في تكوين حضـــارة أمـــة مـــا، إذ التعليم محور أساس للتنمية والنهوض الحضاري. وبعـــبارة أخـــرى، فإنّ أيّ أمة تنشد تشييد حضارة تشييداً يخلّد ذكرها فلابد أن تتخذ من التعليم نقطة الانطلاق، من أجل تحقيق ما تصبو إليه، وما ترغب في الحصول عليه.

وبناء على ذلك، فلا يكاد يخلو مؤتمر أو ندوة علميّة أو حلقة دراسيّة مخصصـــة للحديـــث عـــن النهضة والتنمية في العالم الإسلامي إلا وتجد الصـــدارة فيها للتعليم، ويقع التركيز عليه أكثر من غيره[2]. وزيادة على

---

(١) محمـــود، زكـــي نجيـــب: «الحضارة وقضية التقدم والتخلف» (الكويت: مطابع دار السياسة، ١٩٧٥م) ص ٢٣. وهو مقال ضمن ندوة **أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي** المنعقدة بالكويت في سنة ١٩٧٤م.

(٢) انظـــر علـى سبيل المثال: **نـــدوة أزمة الـــتطور الحضاري في الوطن العربي**، إعداد **شـــاكر مصطفى** (الكويت: مطابع دار السياسة، ١٩٧٥) وهي ندوة علمية انعقدت في الكويـــت (سنة ١٩٧٤) بحضور ما يزيد عن سبعين عضواً، وقد تم التركيز فيها على أهمية التعليم في تحقيق نهضة حضارية وتنمية شاملة للوطن العربي الإسلامي. وانظر أيضاً: **تهيئة الإنسان العربي للعطاء العلمي**، وهي ندوة نظمها مركز دراسات الوحدة العربيّة، بحيث كانت ممحضة تمحيضاً لبيان أثر العلم والتعليم ومساهمتهما في إعداد الإنسان العربي للإنتاج العلمي الرفيع والإبداع الفكري العظيم.

ذلـــك، فإنّ التعليم يكون أول اهتمـــامات زعماء الإصلاح جميعاً في أيّ أمة من الأمـــم، إذ إنّ سيـــرة كل منهم شـــاهدة عـــلى ما قررناه[1].

فلا غرابة أن يهتم زعماء الإصـــلاح وقادة الفكر في العالـــم الإسلامي بأمـــر التعلـــيم لإصـــلاحه إبّان اليقظـــة الإســـلاميّة الحـــديثة. وليس بغريـــب أيضـــاً أن يتخذ العالـــم الإســـلامي من التعليم ســـبيلاً مهماً للتنمية والنهضة، بل يجعله المحور الأســـاس في بناء الحضارة الإســـلاميّة، أو استئنافها من جديد.

وللعـــلم والتعلـــيم تـــاريخ طويل، بدأ منذ وجد الإنسان على هذه الأرض، متمـــثلاً في آدم عليه السلام وذريته من بعده، فالله جل جلاله كرّم آدم عليه السلام وأسجد له ملائكته وجعله خـــليفة له في الأرض بفضيلة العلم التي خصّه بها من بين سائر مخلوقاته، إذ أنّ «قوله تعالى: ﴿... إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (الـــبقرة: ٣٠)، محض إخبار جُعل وسيلة لما صدر من الملائكة مـــن التعجبّ الذي جرّ إلى إظهار فضيلة آدم بالعلم والتعليم الذي صدر

---

(١) يلاحـــظ القـــارئ لسِـــير قادة الإصلاح في العالم أنهم يهتمون أول ما يهتمون بأمر إصـــلاح التعلـــيم، حيث يقع التركيز عليه وذلك لما له من شأن كبير في دفع المجتمع وتوجـــيهه صـــوب الرقي والتحضر، انظر: أمين، أحمد: **زعماء الإصلاح في العصر الحديـــث**، ط٣ (مصر: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٣م)؛ الخوري، أنطوان: **أعلام التربية، حياتهم، آثارهم** (بيروت: دار الكتاب اللباني، د .ت).

منه للملائكة حتى استحق أنّ يسجدوا له»[1]. ولذا، فإنّ العلم والتعليم لا تقف نشأتهما عند أمة بذاتها ولا شعب بعينه، بل ساهم فيهما بنو البشر جميعاً، كل بنصيب، وقد أشار إلى هذه الحقيقة المهمّة في تاريخ العلم أحد كبار المؤرخين له وهو جورج سارتون George Sarton بقوله: «ومما أفسد فهم العلم القديم كثيراً من الأحيان ظاهرتان من الإهمال الذي لا يمكن التسامح [فيهما]، الظاهرة الأولى تتعلق بإهمال العلم الشرقي، فمن سذاجة الأطفال أن نفترض أنّ العلم بدأ في بلاد الإغريق، فإنّ المعجزة اليونانية سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرها من الأقاليم، والعلم اليوناني كان إحياء أكثر منه اختراعاً»[2].

---

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر: **أليس الصبح بقريب: التعليم العربي الإسلامي دراسة تاريخيّة وأراء إصلاحيّة**، ط٢(تونس: الدار التونسيّة للنشر، ١٩٨٨م) ص١٠٤. والكلام المذكور أعلاه للعلامة سالم بوحاجب من كلمة ألقاها أثناء حفلة افتتاح الجمعية الخلدونية بتونس.

(٢) سارتون، جورج: **تاريخ العلم**، ترجمة لفيف من العلماء (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٧م) ١/٢٠-٢١.

١- التعليم عند العرب قبيل الإسلام:

كان العرب قبل الإسلام أمة أمـيّة كما ورد وصفهم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعـة:٢)، و«أمـيون جمـع أميّ وهو من لا يقرأ ولا يكتب»[١]، وهم ينقسـمون جملة إلى بدو وحضر، والأميّة صفة أغلب أهل البدو، بل «إنّ جميع عرب البوادي كذلك»[٢]. ولكن هذه الأميّة لم تصدهم عن أن يكونوا من ذوي العلم، الحريصيـن على العلم والتعـليم، إذ إنّ «العرب جيل من الناس لم يـزالوا موسـومين بين الأمم بالبيان في الكلام، والفصاحة في المنطق، والذلاقة في اللّسان، ولذلك سموا بهذا الاسم فإنّه مشتق من الإبانة، لقولهم أعرب الرجل عما في ضميره إذا أبان عنه»[٣]. فضلاً عن ذلك، فإنّ العلم كان علامة الشرف والسيادة في القبيلة كما عبّر عن ذلك الشاعر الجاهلي الأفوه الأودي وكان سيّدا في قومه، بقوله:

---

(١) ابـن عادل، أبو حفص عمـر بن علي: **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م) ٢٠٣/٢.

(٢) الألوسي، السيّد محمود شكري: **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، شرح وتحقيق محمد بهجة الأثري ، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، د . ت) ٣٨/١.

(٣) المرجع نفسه، ٨/١.

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

تُهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإنْ تولوا فبالأشرار تـــنقاد(١)

وقد كان العرب أحرص الناس على تلقين وتعليم أولادهم الفصاحة والبـــيان، إذ «كـــان العرب في الجاهلية يلقنون أبناءهم وبناتهم ما هم في احتياج إليه من المعارف يعدّونهم بها إلى الكمال المعروف عندهم. وكان أول ذلك عندهم التدريب على الفصاحة وإن كانت جبلة فيهم ولكنهم يـــذودون عن أبنائهم الخطأ ويعصمونهم من اللكنة والخطل، وقد شعروا بـــأنّ الاختلاط أصل فساد اللغات، وفراراً من هذا الفساد تواطئوا على مبدأين كانا بمنـــزلة تعليم اللغة:

أولهما: ترك الاختلاط بمصاهرة غيرهم من الأمم.

وثانـــيهما: ترك المقام بمدائن مجاوريهم من العجم كالروم والفرس، على كثرة رحلاتهم إليهم في قضاء مآربهم»(٢).

ولقد أشار الإمام صاعد الأندلسي إلى أهم العلوم المتداولة بين عرب الجاهلـــية بقولـــــه: «وأما علمها (يقصد العرب) الذي كانت تفاخر به وتـــباري فيه فعلم لسانها وإحكام لغتها ونظم الأشعار وتأليف الخطب. وكانـــت مـــع ذلك أهل علم الأخبار ومعدن معرفة السير والأمصار...

---

(١) انظـــر: فـــروخ، عمـــر: **تاريخ الأدب العربـــي**، ط٦ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٢) ١/١٣٣.

(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر: **أليس الصبح بقريب**، مرجع سابق، ص١٧.

وكان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة، لاحتياجهم لمعرفة ذلك في أسباب المعيشة لا على طريق تعلّم الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم»[1].

وبناء على ذلك، فإنّ الشعر كان أكثر علم العرب، فبه حفظوا أيامهم وخلّدوا مآثرهم، ودونوا حروبهم وسنّوا كثيراً من مكارم الأخلاق. وقد بلغت العناية بالشعر مبلغاً عظيماً، فـ«علم الشعر عندهم فسطاط علومهم كلّها، لما لم يكونوا يدونون ويكتبون، وكانوا يُعْنَون بحفظ أنسابهم وتاريخهم ومفاخرهم، وكانوا يخشون النسيان على قوة عوارضهم وبراعة حوافظهم، فكان الشعر من حيث إنه يذكر مفاخرهم، ويثير شجاعتهم، ويرثي شريفهم، ويمدح سادتهم، ويتضمن في ذلك حفظ أنسابهم وتذكيرهم بأيامهم، بمنزلة المتن الذي يحفظه التلميذ على ظهر قلبه فيتذكر من موجز عباراته شروحاً طويلة في ذهنه. هذا زيادة على ما كان للشعر عندهم من الأهمية وهي ترويج أغراضهم عند تظلمهم،

---

(١) الأندلسي، صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن: **طبقات الأمم**، تحقيق حياة العيد بوعلوان (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨٥م) ص١١٨-١٢١. وهذا الكتاب يعدّ من أوائل الكتب اهتماما بالتأريخ للعلم حيث قسّم الأمم إلى طبقتين: طبقة عنيت بالعلوم وطبقة لم تعن بها، فضلاً عن أنه نبّه إلى أنّ الأمم تتمايز وتتفاضل بالعلوم وتتطور بالاهتمام بالعلم.

وتحمـــيس قومهم وحلفائهم، وبثّ الأخلاق والفضايل في عامتهم، ودفع المســـاوي عـــنهم»[1]. ولقد أشار أبو تمام إلى أهمية الشعر العربي بشقيه الجاهلي والإسلامي في الحثّ على مكارم الأخلاق ومعالي الأمور بقوله:

ولولا خلال سنّها الشعر ما   درى بناة المعالي كيف تؤتى المكارم

ونظـــراً لمـــا كان للشعر عند العرب من مكانة عظمى، فإنّ أيّ قبيلة منهم كانت إذا نبغ فيها شاعر وبرز عن أقرانه وبزّ أترابه أتت القبائل فهنأتها بذلـــك ويولمون، فيطعمون وتجـــتمع النساء للعب والطرب فرحاً وسروراً واستبشـــاراً بهـــذا الحدث العظيم، لأنّ في نبوغه حماية لأعراضهم وذباً عن أحســـابهم ورفعاً لذكرهم. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ المعروف من عاداتهم أنّهم كانوا لا يولمون ولا يهنئون إلا بغلام يولد أو فرس تنتج أو شاعر ينبغ فـــيهم[2]. والسبب في ذلك راجع إلى أنّ كلّ أمة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصـــين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال. وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأنْ تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك هو ديوانها»[3].

وبالإضـــافة إلى اهـــتمام العرب بعلم اللغة من شعر وخطابة، فإنهم كانوا يهتمون أيضاً بتعليم مكارم الأخلاق وحميدها، إذ كان «يلي تعليم

---

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر: **أليس الصبح بقريب**، مرجع سابق، ص١٩-٢٠.

(٢) راجع في ذلك: الألوســي: **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، مرجع سابق، ٣/٨٢.

(٣) الجاحظ، عمرو بن بـــحر: **الحيـــوان**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٢ (مصر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٩٦٥م) ١/٧١-٧٢.

اللّســان عندهم في الدرجة الثانية تعليم الأخلاق الجميلة والصفات العلية فكانوا يُشبون أبناءهم وبناهم على أخلاق تنفع كلاً في خطته من المجتمع في اصطلاحهم.

وفضــلاً عــن ذلــك كان لأفراد قلائل منهم اهتمام ببعض العلوم الأخرى، وإنْ لم تكن شائعة شيوع الشعر والخطابة مثل الطبّ والنظر في النجوم (علم الفلك) وغيرها.

فهــذا مجمل القول في أهم العلوم التي كانت شائعة في المجتمع العربي قبل الإسلام، وهي علوم مناسبة لبيئتهم وجارية على ما تقتضيه حاجاهم في الحياة.

وكانت لهم أسواق ومجالس آداب تشبه في كثير من الوجوه الأندية اللغوية والمجامع العلمية التي نعرفها اليوم[1].

وبالــرجوع إلى كتب الأدب العربي نقف على أشهر الأسواق التي كانت محلاً لتناشد الأشعار وهي **سوق عكاظ** ومكانه قرب الطائف، **وسوق مجنة** ومكانه قرب مكة، **وسوق ذي المجاز** ومكانه جهة عرفة[2]. وزيادة على ذلك، فإنّ المجتمع وما فيه كان مكاناً مفتوحاً للتعليم، حيث يتعلم الصغار من الكبار تلقائياً عن طريق الممارسة والمحاكاة والسّماع.

---

(١) عـبد الدائـم، عبد الله، **التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين**، ط٥ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م) ص١٣٧.

(٢) ابـن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، **المقدمة**، تحقيق درويـش الجويدي، ط٢ (بيروت: المكتبة العصرية والدار النموذجية، ١٩٩٦م) ص ٥٨٤ وما بعدها.

٢- التعليم عند المسلمين:

اقترن ظهور الإسلام بالدعوة إلى التعليم منذ بداية التنـــزيل، حيث «إنّ الرســـالة لم تبدأ بالدعوة إلى إقامة الشعائر -بمعناها الخاص من صوم وصلاة وحج وزكاة- ولا بالحديث عن أركان الإسلام وأســـس بنائه، ولا ببـــيان نظـــام الــتعامل الاقتصادي، ولا بمرتكزات الحياة السياسيّة ومقوماتهـــا، ولا ببيان القيم الأخلاقـــيّة، ولا حتى ببيان أركان العقيدة، وإنما بدأ بمفتاح ذلك كلّه ومحور ذلك كلّه، بدأ بـــ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾»[1].

التعلـــيم في عصـــر الرســـول ﷺ وأصـــحابه ﷺ: كانت بداية التنـــزيل هي نفسها بداية التعليم؛ إذ من المتفق عليه بين العلماء أنّ أول الآيـــات نـــزولاً[2] قولـــه تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ (العلـــق:١-٥). ففـــي هذه الآيات دعوة صريحة إلى القراءة وحثّ على التعلم، وفي ذلك كلّه تنبيه لطيف وتوجيه سديد لأهمية التعليم

---

(١) ســانو، قطــب مصــطفى: **الــنظم التعليمــية الوافدة في أفريقيا: قراءة في البديل الحضــاري** (الدوحة: وزارة الأوقاف والشــؤون الإســلاميّة، ١٤١٩هــ/ ١٩٨٨م)، ص١٧. والكلام المنقول أعلاه للأستاذ عمر عبيد حسنه من تقديمه للكتاب.

(٢) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق طـــه عـــبد الرؤوف سعد وآخرون (مصر: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٨م) ١/٥٢-٦١، وقد أخرجه البخاري في **كتاب الوحي**، ورقمه ٣. وفي هذا الحديث إشارة صريحة إلى أنّ أول ما نزل من القرآن الآيات الخمس الأولى من سورة العلق.

وتعظيم لأمره في الإسلام، إذ بدأ الوحي بالدعوة إلى القراءة باسم الله، وذكر القلم لأهميته في العلم والتعليم، وأنّ الله ﷻ بفضل منه وكرم علّم الإنسان ما لم يعلم. وعليه، وبناء على ذلك، فإنّ سيرة **الرسول** ﷺ هي بذاتها مسيرة التعليم الإسلامي وتجسيد له في عصر التنزيل، وأما بعد وفاته ﷺ فقد تصدى الصحابة ﵃ لمواصلة التعليم على شاكلة مسيرة التعليم النبوي، ولهذا التشاكل كانا بمثابة عصر واحد. فأما سيرة **الرسول** ﷺ فقد جعلها الله ﷻ أسوة حسنة وقدوة للأنام جميعاً كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١). ومعنى ذلك أنّ حياة **الرسول** ﷺ منذ البعثة حتى الوفاة كانت سيرة تعليمية لتبليغ مفردات الإسلام جميعها لمن كان حوله من المسلمين.

وقد أدرك الصحابة ﵃ هذا المغزى العظيم من سيرة الرسول ﷺ فكانوا حريصين على ملازمته ليلاً نهاراً، بل إنّ بعضهم نذر نفسه لملازمة الرسول ﷺ ملازمة دائمة مثل الصحابي الجليل أبي هريرة ﵁ .

وأما من لم يتمكن من ملازمة الرسول ﷺ الوقت كلّه فقد اهتدى بنور الله لأمر مكنّه من تعلم السيرة النبوية ومتابعة ما أنزل كلّه، وإن لم يلازمه ملازمة مستمرة، وذلك بأن يتخذ خليلاً له يتناوبان على ملازمة الرسول ﷺ والسّماع منه والتعلم، حرصاً على ألا يضيع شيء مما أمر الرسول ﷺ بتبليغه للمؤمنين.

إنّ التعليم في عصر الرسول ﷺ كان **تعليماً منفتحاً ومستمراً**؛ وأعني بالمنفتح أنه كان تعليماً للناس جميعاً وليس تعليماً نخبوياً، فليس خاصاً بجنس دون آخر ولا بفئة دون أخرى، فلم تكن هناك حجب بين المعلّم (الرسول ﷺ) والمتعلم وهم صحابته الذين عاصروه ورضوا بالإسلام ديناً. زد على ذلك أنه كان مستمراً حيث استغرق هذا التعليم حياة الرسول ﷺ منذ البعثة حتى وفاته، إذ الرسول ﷺ نفسه حصر مهمته في التعليم كما قال:«**إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلا مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**»[1]. وهذا التبليغ يؤدى عن طريق عملية تعليمية يتلازم فيها القول والعمل معاً.

ولقد أُمر الرسول ﷺ بالتبليغ والبيان معاً؛ فلم يستغن عن التبليغ بالبيان ولا بالبيان عن التبليغ. والسبب في ذلك أن التعليم بتبليغ ما أنزل إليه لا يُجْدِ نفعاً إذا لم يتبيّن للمبلّغ المراد منه، بل لا بّد من بيان وتوضيح ما أمر بتبليغه.

إن الناظر في سيرة الرسول ﷺ وسنته الشريفة يجد أنه ﷺ كان حريصاً على تعليم الناس، وكان يقصد من عملية التعليم هذه هداية الناس جميعاً لدين الله، ولذا، فقد كان يعلم الناس دون ملل أو فتور، وفي حالتي الضعف والقوة؛ وكان تعليمه الناس على طريقتين:

أولهما: وهي الأكثر، أن يملي على حاضري مجلسه من القرآن والتربية الخلقية والمواعظ وأخبار الأنبياء السابقين. **والثانية**: جوابه عن

---

(١) أخرجه مسلم.

أسـئلة السـائلين والمسترشدين وما يدور بينه وبين أصحابه من أطراف الحديث[1]. وقد بلغ من حرص النبي ﷺ على العلم والتعليم أنْ جعل فداء الأسرى ببدر مقابل تعليم القراءة والكتابة لعشرة من أبناء المدينة[2].

وأما إذا انتقلنا للكلام على التعليم في عصر الصحابة ﷺ فلا نكاد نجد فـروقاً كثيرة بين العصرين، إذ إنّ مسيرة التعليم كانت على نسق واحد من لدن الرسول ﷺ حتى عصر الخلفاء الراشدين ﷺ، مع ملاحظة تطور ونموّ أنماط التعليم تبعاً لناموس تطور المجتمع الإسلامي ونموّه. والسبب في ذلك راجـع إلى كون الصحابة ﷺ تشربوا سنّة النبي ﷺ والمتمثلة في التعلم ثم التعلـيم، وبذلـك تمكنوا من نشر الدعوة الإسلامية وتبليغها لمن استطاعوا ملاقاته من بني البشر، وهـذا الأمر «جعل الصحابة ﷺ حريصين على علم مـا يصدر منه وربما تناوبوا لحضور مجلس النبي ﷺ من علم القرآن ومعانيه وسـنة رسـول الله ﷺ ومواعـظه وأقضيته، وتصدى الصحابة ﷺ بعد وفاة النبي لبثّ ذلك»[3] العلم بعد أنْ تعلموه وعملوا بما فيه.

لكن لما توسّع الصحابة ﷺ في فتح البلدان، شرقاً وغرباً، ودخل في الإسـلام أمـم لا عهد لها باللغة العربية، لغة الخطاب الشرعي، كان من

---

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر: **أليس الصبـح بقريب**، مرجع سابق، ص ٤٣-٤٤.

(٢) أخرج الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس قال: « كَانَ نَاسٌ مِنَ الأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ لَـمْ يَكُـنْ لَهُمْ فِدَاءٌ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِدَاءَهُمْ أَنْ يُعَلِّمُوا أَوْلاَدَ الأَنْصَارِ الْكِتَابَةَ ». انظر الحديث في المسند ورقمه: ٢١٠٦.

(٣) ابن عاشور، محمد الطاهر: **أليس الصبح بقريب**، مرجع سابق، ص٢٥.

الواجب على هذه الأمم تعلّم قدْر من العربية يمكنهم من قراءة القرآن الكريم في الصلاة، وفهم الخطاب الشرعي وما تضمنه من أمر ونهي. هذا الأمر، جعل الأمم غير العربية التي دخلت في الإسلام تقبل إقبالاً منقطع النظير على تعلّم اللّسان العربي رغبة منها واختياراً لا رهبة واضطراراً. ولذا، أصبح اللّسان العربي يكتسب بطريق التعلم والتعليم بعد أنْ كان سليقة في المسلم العربي آنذاك، يتكلم فيعرب عما في نفسه، ويسمع الخطاب الشرعي فيفهم المراد منه.

وفي العصر الأموي، حافظ التعليم على نفس النسق الذي تقدمه، وإنْ لم يقم بتطويره، إذ إنّ أبا عمر الكلبي ذكر المسجد الجامع بدمشق الذي بناه الأمويون وكثرة علمائه بقوله: «عهد المسجد الجامع، يعني بدمشق، وإنّ عند كلّ عمودٍ شيخاً وعليه الناس يكتبون العلم»[1]. ولذا، فنجد أنّ أبرز التابعين الذين تلقوا تعليمهم من الصحابة ﭬ إنما كانوا في العصر الأموي، إذ إنّ الحروب والفتن الداخلية مع مختلف الفرق السياسية والعقدية وكثرة الفتوحات والغزوات لم تمنع العلماء من التعليم ولا طلبة العلم من التعلم.

إلا أن العصر الأموي قد شهد نهضة لغوية وأدبية كان لها أثرها في حفظ اللغة وتدوينها وتعليمها، بل إنّ الخلفاء الأمويين أنفسهم حافظوا

---

(١) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله: **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥م) ٣٢٨/١.

علـى «الصـبغة والثقافة العربية، فنشّـأوا أبناءهم بالبادية يتعلمون فيها الشـعر والأدب واللغـة، ويكتسبون الملكة والفطرة والطبع، ويعقدون المجالس الأدبية ويستدعون الرواة والأدباء والشعراء»[1]. وهكذا شجعت الدولـة الأموية تعلم وتعليم وحفظ اللغة العربية وما تفرع عنها من أدب وشعر، ولذا فقد برز في هذا العصر ثلة من الشعراء أبرزهم على الإطلاق جرير والفرزدق والأخطل.

أما في العصر العباسي، الذي يعد بحق العصر الذهبي للعلم والتعليم في تاريخنا الإسلامي، فقد ازدهرت الحياة العلميّة ازدهاراً كبيراً. وكان المجتمع الإسـلامي آنذاك ملتقى لمختلف العلوم وشتى الفنون. ومجرد ذكر أنواع العلـوم المعلومة لدى المسلمين في العصر العباسي خير شاهد على ازدهار المعـارف وتطورهـا في هـذا العصر، فنجد العلوم الشرعيّة من تفسير وحديـث وفقه وكلام وغيرها، وعلوم العربيّة وآدابها من نثر وشعر ونحو وغيرهـا، والعلوم الطبيعيّة من كيمياء وفيزياء، وعلوم الرياضيات، وعلم الطـبّ والفلسـفة وغـيـرها من العلوم الأخرى التي اشـتغل بـها المسـلمون في العصر العباسي، وكان لهم أثر كبير في تطويرها وتنقيحها ونشرها في المجتمع.

---

(١) خفاجـي، محمـد : **الأدب العربـي وتاريخـه في العصـرين الأموي والعباسي** (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٠م) ص ٩.

فهـــذا التطور العلمي والتعليمي والتراكم المعرفي الذي شهده العصر العباسي لم يحدث كيفما اتفق، بل كان وراءه الخلفاء العباسيون بما بذلوه من جهد في نشر العلم والتشجيع على التعليم.

وفضلاً عن ذلك، فإنّ هذا التطور العلمي لابّد أن يقترن بنمو حركة التعلـــيم ونشـــاطها، وحسبنا شاهداً على ما نقول كثرة مواضع التعليم ووفـــرتها في هذا العصر، بل لقد استحدثت مواضع لم تكن موجودة في العصر الأموي ومن أهمها المدارس التي ظهرت في العصر العباسي بوصفها موضـــعاً مهمـــاً للتعليم، وكتب لها القَبول عند الناس فانتشرت انتشاراً ســـريعاً حتى إنّ كلّ مدينة بنيت فيها مدرسة. يضاف إلى ذلك، أنّ المدن الكبرى كان بها عدّة مدارس.

إنّ الاهـــتمام بالكتـــب وجمعهـــا وتكوين مكتبات زاخرة بمختلف المصـــنّفات في شـــتى الموضوعات كان له أثر كبير في نموّ الحركة العلمية وتطورها في العصر العباسي.

وعلى الجملة، فإنّ الحركة العلمية والنشاط التعليمي قد بلغ ذروته في هذا العصر، بحيث لم يخل فرع من فروع العلم والمعرفة في زمنهم من علم يبحثون فيه توسيعاً لمحتوياته وتطويراً لمضمونه وتصحيحاً لأخطائه وإضافةً لما لم يتعرض له المتقدمون. فطوروا العلوم التي نشأت في المجتمع الإسلامي مـــن فقه وحديث وتفسير وكلام ولغة وأدب وغيرها، كما استفادوا من

العلوم المنقولة إليهم من التراث الإنساني مثل التراث اليوناني والفارسي وغيرهما. ولذا، فلا غرْو أنْ يعد العصر العباسي العصر الذهبي للعلم والمسيرة التعليمية، ولذلك كثرت المؤلفات الحديثة حول معالم الحضارة العلمية في العصر العباسي، واهتم الباحثون في تاريخ العلم والعلوم عند المسلمين بهذا العصر، بل قد أفرد هذا العصر من قبل بعضهم بتآليف ركز فيها أصحابها على الحياة العلمية والفكرية فيه، التي تعدّ بحق من أهم العناصر في هذه الحضارة الإسلاميّة.

وفي المغرب الإسلامي، اعتنى المغاربة أول أمرهم بعلوم الشريعة وعلوم اللغة العربية لا يخلطون بها غيرها من العلوم. ولذلك نجد أنّ كتب المغاربة الأولى تدور موضوعاتها حول علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث، وكان لهم اعتناء بأمر التعليم منذ الفتح، حيث إنّ المساجد والكتاتيب التي تعدّ أهم مواضع التعليم عند المسلمين انتشرت انتشاراً سريعاً.

وبمرور الزمن انتشرت كثير من العلوم وازدهرت في المشرق الإسلامي دون مغربه، فلما نما خبرها إلى أهل المغرب لم يكن أمامهم من طريق للحصول عليها إلا بالرحلة للمشرق والأخذ عن علمائه، ولذلك كثرت الرحلات من المغرب إلى المشرق، وقد دفعهم إلى ذلك حبّهم للعلم وشغفهم على تحصيله.

٣- مواضع التعليم عند المسلمين:[١]

الاهتمام بالعلم يقتضي أيضاً الاهتمام بالمواضع التي يدرّس فيها، فيتم نقله من جيل إلى آخر.

أ- مواضع التعليم قبل ظهور المدارس:

لم يكن للمسلمين الأوائل من الصحابة ﷺ مكاناً معيناً للتعليم، فكان الرسول ﷺ يعلّمهم حيثما تيسر له ذلك، فقد يكون التعليم في إحدى بيوتات المسلمين أو أي مكان آخر يلتقون فيه. ولما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ إلى المدينة اتخذ بها مسجداً، وجعله موضعاً للتعليم حيث كان يجلس لأصحابه ولاسيما دبر كلّ صلاة ليعلمّهم ويبيّن لهم تعاليم الإسلام. ولذا، كانت الانطلاقة التعليمية المنظمة من المسجد.

- المسجد: أول أمر يلفت الانتباه بخصوص المسجد أنّ الرسول ﷺ أشار إلى أنّ الأرض جميعها جعلها الله له ولأمته مسجداً، كما ورد في قوله ﷺ: «وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»[٢]. فإذا كانت

---

(١) لن أخوض حديثا مفصلاً عن مواضع التعليم عند المسلمين من الناحية التاريخية فيما يتعلق بظهورها وتطورها وانتشارها، بل سأقصر الحديث عن هذه المواضع مبيناً وظيفتها التعليمية، وأما تاريخها فله مؤلفات خاصة به سأتعرض لذكر بعض منها لمن أراد التوسع في معرفة هذه المعلومات التاريخية.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم ورقمه ٣٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم ٨١٠. ولفظ الحديث كاملاً «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً».

رسالة المسجد الأساس تتمثل في تعليم المسلمين وتربيتهم، كما كان شأن الرسول ﷺ مع أصحابه ﷺ ففي ذلك تنبيه لطيف وإشارة خفية إلى أنّ الأرض كلّها تصلح مكاناً للتعليم، كصلاحيتها لأنْ تكون مسجداً. ثم اتخذ الرسول ﷺ مكاناً معيّناً من الأرض وبنى فيه مسجده، وجلس فيه لتعليم المسلمين، فكان الرسول ﷺ أول من سنّ لنا اتخاذ المسجد مكاناً للتعليم كما هو مكان للعبادة، وهذه السنّة الحسنة كانت لها أثر عظيم في الأجيال الإسلاميّة التي تلت عصر الرسول ﷺ، حيث «إنّ المسلمين في عصورهم الأول توسعوا في فهم مهمّة المسجد، فاتخذوه مكاناً للعبادة ومعهداً للتعليم»[1] وبكلمة جامعة، فإنّ المسجد كان المركز الأساس الذي يدير شؤون المجتمع الإسلامي في جميع نواحي الحياة وشتى الأنشطة الاجتماعية.

وأما موضوعات التعليم في المسجد فقد كانت خاضعة لأنواع العلوم المتعارف عليها في المجتمع الإسلامي.

وأما أسلوب التعليم ونظامه، في المسجد، فهو أن يجلس الشيخ غالباً ما يكون بجانب أسطوانة في المسجد، ويتحلق الطلبة من حوله، فيلقي الشيخ درسه إما حفظاً أو من كتاب ويعقبه بالشرح والتفسير والتوضيح لما فيه غموض أو التباس، ويدون الطلبة ذلك كلّه أو بعضاً منه.

- **الكتّاب العمومي**: اهتم الرسول ﷺ بأمر تعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة حتى جعلها شرطاً لمن أراد أنْ يفتدي نفسه من الأسر

---

(١) شلبي، أحمد: **التربية الإسلاميّة نظمها، فلسفتها، تاريخها**، ط٦ (مصر: مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٨م) ص١٠٢.

كما وقع مع أسرى بدر. فضلاً عن ذلك، فقد جعل الآباء مسؤولين عن تعليم أبنائهم أمور دينهم مثلما ورد في قوله ﷺ: « **مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ ...**»[1].

واستمر الأمر على هذه الحال في عصر الصحابة ﷺ حيث كانت مسؤولية تعليم الصبيان منوطة بالآباء رأساً. وبناء على ذلك، فإنّ النصائح التعليمية كانت توجه مباشرة للأباء بوصفهم معلمين ومربين لما رزقهم الله من البنين، وأنهم هم المسؤولون عن ذلك كلّه.

وبمرور الزمن، وكثرة الصبيان وعجز الآباء عن أداء مهمة التعليم الأولي لسبب أو لآخر، رأى أولو النهى ضرورة الاهتمام بتعليم الصبيان القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم، فتم تحديد موضع معيّن لذلك، واشتق له اسم من وظيفته الأساس فسمي بالكُتّاب ويجمع على كتاتيب، ولذلك فـ«الكتاب موضع تعليم الكتاب»[2]، يعني الكتابة لارتباطه في الغالب بتعليم الصبيان القراءة والكتابة. ولكن مهمة الكُتّاب أضيف إليها تعليم القرآن الكريم، ومبادئ الإسلام وتعاليمه الأساسية.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، ورقمه ٤١٨، وأحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، ورقمه ٦٤٠٢، واللفظ لأبي داود.

(٢) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٩٠م)، ٤٢٥/٢.

ونظـراً لهذه المهمة التعليمية التي اضطلع بها الكتّاب، فقد انتشر في البلدان الإسلاميّة شرقاً وغرباً.

وأمـا عـن موضـع الكتاب ومكانه، فإنه غالباً ما يكون ملتصقاً بالمسـجد أو قريـباً منه، بل أحياناً يكون في المسجد نفسه، رغم وجود نصـوص من بعض الأئمة تنص على كراهيّة أو عدم جواز تعليم الصبيان في المسـاجد[1]، وقـد يكون موضعه أيضاً في مكان مستقل عن المسجد كالمـنازل والحوانيت وأطراف الأسواق[2]. وبالأحرى فإنّ مكان الكُتاب تبع لتواجـد الصبيان وكثرتهم، فكلما كان هناك تجمع صبياني في مكان مـا غالباً ما يستدعي إنشاء كُتاب لتعليمهم وتربيتهم. ولكن مع انتشار الكتاتيـب ووفرتها في مختلف الأمصار الإسلامية شرقاً وغرباً فإنّ فئة من الصـبيان مـنعهم انـتماؤهم لطبقة السادة من الالتحاق بهذه الكتاتيب

---

(١) المنقول عن الإمام مالك رحمه الله كراهيّة تعليم الصبيان في المسجد وبه قال الإمام سحنون من المالكية ونص الفتوى كما ذكرها أبو الحسن القابسي: «وأما تعليم الصبيان فـي المسـجد، فإنّ ابن القاسم قال: سئل مالك عن الرجل يأتي بالصبي إلى المسجد، أتستحبّ ذلك؟ قال: إنْ كان قد بلغ موضع الأدب، وعرف ذلك، ولا يعبث في المسجد فلا أرى بأساً. وإنْ كان صغيراً، لا يقرّ فيه، فلا أحبّ ذلك. ولابن وهب عن مالك مثل معنى هذا. وأما سحنون فقال: سئل مالك عن تعليم الصبيان فقال: لا أرى ذلك يجوز لأنهـم لا يتحفظون من النجاسة، ولم ينصب المسجد للتعليم». انظر: أبو الحسن علي القابسي: **الرسالة المفصّلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين**، تحقيق أحمد خالد (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨٦م) ص١٤٥.

(٢) انظر: شلبي، أحمد: **التربية الإسلامية**، مرجع سابق، ص٥٤.

المفتوحة لصبيان المسلمين عامة. ولذا، فقد قام الخلفاء والأمراء باتخاذ ما يشبه الكُتاب في قصورهم لتعليم أبنائهم، ويمكن الاصطلاح عليه «بالكُتاب القصوري» نسبة إلى قصور الخلفاء، أو قل إنْ شئت: «الكتاب الخصوصي» تميزاً له عن الكُتاب العمومي الذي تقدم الحديث عنه.

- **الكتاب القُصوري**: فإذا كان الكُتاب العمومي موضعاً لتعليم الصبيان، فيمكن تعريف **الكتاب القصوري بأنه: موضع لتعليم أبناء الخلفاء والأمراء وصبيانهم، فهو كُتاب قصوري، مقصور على فئة معيّنة من الصبيان**، وسبب اتخاذ هذا النوع من الكُتاب حرص الخلفاء والأمراء على تعليم صبيانهم وتأديبهم وتربيتهم حتى لا يفوتون عليهم هذه المرحلة المهمة في التعليم.

وأما موضع هذا النوع من الكُتاب فهو القصر نفسه، حيث يخصص جناح منه لأداء هذه المهمّة بوصفه كُتاباً، وغالباً ما يكون المشرف على هذه المهمّة مقيماً في القصر حتى يصرف عنايته كلّها للتعليم والتأديب.

وفي الكُتاب القصوري يتم تعليم الصبيان القراءة والكتابة والقرآن الكريم والنحو والشعر وغيرها مما يصلح اللسان ويقوّم اللحن، فضلاً عن التأديب الخلقي والتربية الشاملة للعقل والجسم معاً. وبناء على ذلك، فإنّ القائم بوظيفة التعليم في الكُتاب القصوري أطلق عليه اسم **المؤدب**، على

خـــلاف النوع الأول من الكُتاب إذْ القائم بالوظيفـــة فيه يطـــلق عليه **معلّم الصبيان.**

وأمـــا بالنســـبة لمـــنهاج التعليم في الكُتاب القصوري فإنه يلتقي في الأسس العامة للتعليم بالكُتاب العام، إلا أنه يخـــتلف عنه في بعض الأمور مثل السنّ التي يقضيها الصبي في كلّ منهما، فنجد أنّ السنين التي يقضيها المؤدب مع أبناء الملوك أطول من الأخرى، فضلاً عن أنّ الخليفة أو الأمير هـــو الـــذي يضع بنفسه المنهاج التعليمي ليسير عليه المؤدب، يضاف إلى ذلـــك، أنّ القصـــور لم تكن موضعاً لتعليم الصبيان وحسب، بل كانت أيضـــاً موضـــعاً لتعلـــيم الكبار، إذ كانت المجـــالس العلميّة تعقد في بلاطات القصور.

- **البلاط:** كان الرسول ﷺ يجـــلس للناس في المســـجد، فيعلمهم مـــا أُنزل إليه من الوحي، ويرشدهم، ويزكيهم، وكان مجلسه مفتوحاً لمن شـــاء ورغب في التعلم منه، وعلى هـــذه السيـــرة سار الأصحاب ﷺ، فـــلم يـــتخذوا قصـــوراً تحجبهم عن الناس وتمنعهم من التعلم منهم. ثم تطـــورت الحياة خلال الدولتين الأموية والعباسية، فابتنى الخلفاء قصوراً واتخذوا حجاباً وظيفتهم الأساس إدخال من رغب الخليفة في دخوله عليه، ومـــنع من رغب عنه. ولقد اتخذ البلاط بوصفه موضعاً للتعليم في العصر الأمـــوي بـــدءاً مع أول خليفة لهم، وهو معاوية بن أبي سفيان ﷺ الذي

استدعى إلى مجلسه بعض العلماء والأدباء وأهل السير والعالمين بالتاريخ ومواقعه الشهيرة ولاسيما العربيّ منه ليحدثوه به، كما أدى حبه للعلم تعلم تاريخ الأمم الأخرى وتجارهم ولاسيما ملوك الفرس والروم، مما جعله يستدعي من له معرفة بأخبارهم فيحدثوه عما وصلهم من أخبارهم[1].

واستمر الأمر على هذه الوتيرة طيلة العصر الأموي تقريباً، حيث كانت بلاطاتهم مكاناً لتعليم الأدب والشعر والتاريخ غالباً. ولما قامت الدولة العباسية، بدأت بلاطاتهم تشهد تطوراً في التعليم وذلك تبعاً لتطور العلوم ونموِّها في عصرهم. ولذا، أصبح البلاط يتسع لمختلف العلوم والفنون المتداولة في المجتمع الإسلامي آنذاك، حتى إنّ كثيراً من خلفاء الدولة العباسية بلغوا من العلم مبلغاً عظيماً.

- **منازل العلماء**: على الرغم من وفرة المساجد وانتشارها وكثرة الكتاتيب وشيوعها، فإنّ قلة من العلماء اتخذوا منازلهم موضعاً لنشر العلم وتعليمه. وهذه القلّة سببها أنّ الله ﷻ جعل البيوت سكناً وموضعاً للاستراحة كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ (النحل: ٨٠)، ولذلك لم يتخذ المسلمون البيوت مجلساً كالمسجد

(١) انظر: المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ٢/ ٢٨-٣٠.

أو الكُـتاب، لأنّ حلقــة الدرس وما تستدعيه من حضور مكثّف للطلبة وحــركة وأنشــطــة تتعارض مع الوظيــفة الأساسية للبيوت بوصفها موضــعاً للســكن والقرار والهدوء وغيرها. لكن الضرورة جعلت بعض العــلماء ممــن كــان حريصاً على نشــر العلم وتعليمــه أنْ يجعلوا من بيوتــهم موضعاً للتعليم.

غير أنه يبقى أن «أفضل مواضع التدريس هو المسجد، لأنّ الجلوس للتدريس إنما فائدته أنْ تظهر به سنة أو تخمد به بدعة، أو يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى، والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوافراً، لأنه موضع لاجتماع الناس رفيعهم ووضيعهم، وعالمهم وجاهلهم بخلاف البيت فإنه محجور على الناس إلا من أبيح له، والبيوت تحترم وتهاب حتى لو أبيحت للجميع»[1].

– **حوانيت الوراقين والعلماء:** من المواضع التي لا يمكن إغفالها عند الحديــث عــن مواضــع التعليم في التاريخ الإسلامي حوانيت الوراقين ودكاكين العلماء بوصفها موضعاً لنشر العلم وتعليمه. فقد كان لحوانيت الوراقــين والعلماء أثر كبير في التعليم، وتنشيط الحركة العلمية في المجتمع الإســلامي، وسبب ذلك أنّ الوراقين كانوا يقومون بعملية مهمّة جداً في نشــر العلم والتعليم وهي «الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور

---

(١) شلبي، أحمد: **التربية الإسلاميّة**، مرجع سابق، ص٨٧.

الكتبية والدواوين»[1]. ولا شكّ أنّ تصحيح الكتب وانتساخها تم تقديمها وعرضـــها للراغـــبين فـــيها مساهمة ذات أهمية كبيرة في نموّ مسيرة العلم والتعليم وتنميتها.

وزد عـــلى ذلـــك، فإنّ الوراقين أنفسهم كانوا من كبار العلماء في الغالب.

ثم إنّ حوانيـــت الوراقين لم تكن مجرّد دكاكين لبيع الكتب كما هو حـــال معظـــم المكتبات التجارية اليوم، بل كانت موضعاً للتعليم أيضاً، حيث إنها كانت ملتقى مفتوحاً ومجلساً محبباً للعلماء.

وممـــا يدل على أهمية حوانيت الوراقين التعليمية أن بعض العلماء قد اتخذوهـــا مبيـــتاً للقـــراءة والمطالعة فيها ليلاً، وذلك لما حوته من كتب ومصـــادر لا توجد في غيـــرها، ومن أشـــهر هؤلاء الأديب الضارب في كـــلّ فـــنّ بطـــرف عمرو بن بحر الجاحظ صاحب التصانيف المختلفة والمشاركات المتنوعة.

ولم يقـــف النشـــاط العلمي بالدكاكين على حوانيت الوراقين، بل انتقل منه إلى غيره من محال البيع والشراء.

---

(١) ابـــن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص٣٩٢. وقد أفرد العلامة ابن خلدون الفصل (الحادي والثلاثون) من مقدمته للحديث عن صناعة الوراقة، وما لها من أثر كبير في انتشـــار العلوم، وأنه كلما تبحر العمران واتسع نطاق الدولة احتيج لصناعة الوراقة. انظر: ص٣٩٢ وما بعدها.

ب- مواضع التعليم بعد ظهور المدارس:

استمر التعليم الإسلامي على هذه الحال مستثمراً كثيراً من المواضع لنشر العلم؛ فمن المنازل إلى المساجد، ومن الكتاتيب إلى الحوانيت، ومن البلاطات إلى الدكاكين، ثم ظهرت المدارس في المجتمعات الإسلاميّة وبدأت تنتشر انتشاراً سريعاً نظراً لما حققته من نجاح في أداء وظيفتها التعليمية. ثم إنّ انتشار المدارس في العالم الإسلامي أدّى إلى انتشار المكتبات لتصبح موضعاً مهمّاً من مواضع التعليم عند المسلمين.

- **المدارس**: تبعاً لسنة التطور والنمو في الكون، فإنّ التعليم بدأ أول أمره في المسجد، إذ كان الرسول ﷺ يعلّم فيه المسلمين أمور دينهم، واستمر الأمر على هذه الشاكلة في عهد الصحابة ﷺ. ثم حدث تطور على مستوى العلوم في المجتمع الإسلامي فاستحدثت ضروب من العلوم، وظهرت فرق كلامية، وبرزت مذاهب فقهية، فاستحدث المسلمون تبعاً لذلك مواضع أخرى للتعليم مثل الحوانيت والدكاكين والكتاتيب والبلاطات وحتى منازل العلماء اتخذت عند بعضهم موضعاً للتعليم. والملاحظ أنّ معظم هذه المواضع كان التعليم فيها مفتوحاً للجميع، والحضور غير منظم، فلا أحد يُلزم بذلك، إلا ما كان من بعض الأفراد الذين يُلزمون أنفسهم بحضور مجلس شيخ. ناهيك عن أنّ تطور العلوم وظهور الفرق الكلامية وبروز المذاهب الفقهية، أدى ذلك

كلّه إلى وجود صراعات فكرية وعقدية ومناظرات فقهية مما جعل أصحاب كلّ فرقة ومذهب حريصون على تكوين ثلّة من أتباعهم لتحصين فرقتهم ومذهبهم من مُناوئيهم. وهذا التكوين الخاص بفئة معينة من المتعلمين والمتميّز بالحضور المنظم الملزم، لم يكن له موضع لتطبيقه إلا في المدارس.

والشائع عن نشأة المدارس وظهورها في العالم الإسلامي، أنّ أول مدرسة بُنيت سنة ٤٥٩ هجرية على يد الوزير السلجوقي نظام الملك، بناء على ما ذكره ابن خلكان عند ترجمته له[١]، ووافقه الذهبي على ذلك[٢]. وقد ردّ الإمام **السبكي** هذا القول عندما ذكر ترجمة **لنظام الملك**[٣].

وإذا قيل: إن نشأة المدارس وظهورها كان قبل نظام الملك، إلا أنه يبقى له الفضل في الاعتناء والاهتمام بها اهتماماً لم يُسبق إليه، فضلاً عما بذله من جهد كبير لنشر التعليم المنظم بواسطة المدارس، إذ قام بإنشاء العديد منها في أهم الأمصار الإسلاميّة آنذاك، ثم تنافس أمراء

---

(١) ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٧٧م) ٦/٣٥٣.

(٢) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمدبن عثمان: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرنؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٣م) ١٢/٣١٢.

(٣) السبكي، أبو نصر عبد الوهاب بن علي: **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناجي (مصر: مطبعة عيسى الحلبي وشركاه،١٣٨٣ هـ/١٩٦٣م) ٣/١١١.

المسلمين ووزراؤهم شرقاً وغرباً على إقامة المدارس حبًّا للعلم ونشراً للتعليم ورجاءً للثواب من الله ﷻ.

فضلاً عن ذلك، فإنّ الصراعات المذهبية، عقدية كانت أم فقهية، ساهمت في انتشار المدارس وكثرتها في العالم الإسلامي؛ فنجد مدرسة للأحناف وأخرى للمالكية وثالثة للشافعية ورابعة للحنابلة. وبمرور الزمن ظهرت علوم أخرى مستمدة من تراث غير إسلامي كالهندسة والحساب وغيرهما، فتم إنشاء مدارس أيضاً لهذه العلوم، واستمر الأمر على هذه الشاكلة حتى العصر الحديث، حيث أصبحت مواضع التعليم المستمدة من النظام المدرسي تنقسم عموماً إلى ثلاثة مراحل: تعليم ابتدائي وموضعه المدرسة، وتعليم ثانوي وموضعه المعهد، وتعليم عالي وموضعه الجامعة أو الكليّة.

- **المكتبات**: اهتم الإسلام بالكتابة والقراءة، وحثّ الناس عليهما، الأمر الذي جعل المسلمين يهتمون بالكتاب، ويعلون من شأنه، ويرفعونه مكاناً علياً.

واهتم العلماء بجمع الكتب، سواء أكان ذلك عن طريق الابتياع من الوراقين والنساخ الذين كانوا بمثابة دور النشر والمطابع الحديثة، أم عن طريق تقييد ما يسمعونه في مجالس العلم ومواضع التعليم المختلفة، بحيث إذا فرغ أحدهم من السماع تحصل لديه كتاب، وكلّما ازداد سماعه

وتنوع ازدادت كتبه وتنوعت تبعاً لذلك. فإذا تشيّخ (صار شيخاً) وتأهل للتعليم وجد لديه مجموعة من الكتب بحيث تشكل مكتبة خاصة بحصيلته العلمية تكون تحت يديه سهلة المتناول متى دعته الحاجة إلى الرجوع إليها.

وقد أدرك خلفاء المسلمين ووزراؤهم وبعض الأغنياء المحسنين أهمية الكتب في نشر العلم، فبادر الخلفاء والأمراء بإنشاء مكتبات داخل قصورهم، وجلبوا إليها مختلف الكتب ونفائسها.. ولما لم يكن من اليسير على الطلبة كلّهم استخدام هذه المكتبات، تم إنشاء مكتبات عمومية، بحيث يتمكن الجميع من استخدامها. وهذه المكتبات غالباً ما تكون تابعة للمساجد أو المدارس ووقفاً عليها، فلا يكاد يخلو مسجد من مكتبة تابعة له.

وكان للمدارس أثر كبير في انتشار المكتبات والاهتمام بها، إذ لم تخلو مدرسة من وجود مكتبة تتبعها، مزودة بمجموعة من الكتب.. وقد أوقف المحسنون من أغنياء المسلمين العديد من المكتبات لصالح طلبة العلم، حتى إنّ الإمام **ابن حبان** رحمه الله جعل من بيته مكتبة يأوي إليها طلبة العلم وكل من كانت له رغبة في الاستفادة مما حوته مكتبته[1].

---

(١) راجع: الفارسي، علاء الدين علي بن بلبان: **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، تحقيق شعيب الأرنؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ٢٨/١ وما بعدها.

فهذه أهم مواضع التعلــيم عند المسلميــن، ولكن هذا لا يعني أنهم لم يــتخذوا غيرهـــا، بل إنّ مواضع التعليم أكثر من ذلك، فنجد مثلاً أنّ الــبادية في وقـــت مـــا كانت إحدى مواضع التعليم المهمة بالنسبة للغة العربـــية، وذلـــك أثناء اختلاط العرب بالعجم وما تبعه من فساد اللسان العـــربي، فـــلم يكن أمام من أراد أنْ يكون منطقه سليماً إلا الذهاب إلى الــبادية، وذلـــك لسلامة لسان أهلها من العجمة. ولقد اتخذها موضعاً للتعلــيم أئمـــة أعـــلام مثل الإمام الشافعي والخليل بن أحمد الفراهيدي والكسائي وغيرهم.

فضـــلاً عن ذلك كـــلّه، فإنّ الرُّبـــط والزوايا والبيمـــارســـتانات (كلمة فارسية معناها المســـتشفيات) كانت مواضـــعاً للتعـــليم، بحيث إنّ المســـلميـــن واظـــبوا على التعـــليم في حـــالتي الحرب والســـلم، وفي الصـــحـــة والمرض كما تشهـــد بذلك المواضـــع الـــتي مارســـوا فيها التعليم.

أثر التعليم في التنمية

يعـــدّ موضـــوع التنمية أهم موضوع يشغل الناس أفراداً وجماعات، شـــعوباً وحكومات، والسبب في ذلك أنّ النّاس كلّهم يسعون جاهدين للتنمـــية، كلّ على شاكلته، ولا يغفل عنها إلا من لا خلاق له في الدنيا ولا في الآخـــرة. فالهدف الأساس للتنمية هو تحسين حياة البشر والازدياد مـــن ذلـــك على حسب قدرات الناس وعزائم كلّ فرد، وعلى قدر أهل العزم تكون التنمية.

ومن ثَم، فلا غرابة أنْ تكون التنمية «في حقيـــقتها عملية حضارية، لكونهـــا تشـــمل مختلف أوجه النشاط في المجتمع بما يحقق رفاهية الإنسان وكرامـــته، وهـــي أيضاً بناء للإنسان وتحرير له وتطوير لكفاءاته وإطلاق لقدراته، كما أنها اكتشاف لموارد المجتمع وتنميتها وحسن تسخيرها»[1]، بحيث تعود بالنفع للمجتمعات الإنسانيّة، دون المساس بسعادتها وأمنها.

ونظراً لأهمية التنمية فإنها تشغل حيّزاً كبيراً من كتابات المهتمين بأمر التطوير والرقي والازدهار والنهضة في المجتمعات الإنسانيّة، وليس الاهتمام

---

(١) عمـــر عبـــيد حسنه، تقديم لكتاب: التنمية الاقتصادية في الـــمنهج الإسلامي (قطر: مؤسسة الخليج للنشر والطباعة، ١٩٨٨م) ص٩.

بهــا لدى شعوب العالم الثالث أو ما يعبّر عنه بالشعوب النامية[1]، بل إنّ الشــعوب التي حققت تطوراً وازدهاراً وشهدت نهضة كبيرة في عصرنا، والمتمــثلة في العــالم الغربي، لا تنفك عن الاهتمام بأمر التنمية، اهتماماً بكيفية الزيادة في حجمها، كماً وكيفاً، والمحافظة عليها أيضاً ولو بحجبها عــن الآخرين. وأما شعوب العالم الثالث، والعالم الإسلامي أحدها، فإنّ التنمــية شــغلهم الشاغل، حيث إنّ مجتمعاتهم تعاني ضروباً من التخلف وأنواعــاً من التأخر تتمثل في التدهور في كثير من مجالات الحياة، ولذلك فهم أحرص الناس على التنمية، للخروج مما هم فيه.

فضلاً عن ذلك، فإنّ النهضة الحضارية التي تعدّ مطمحاً أساساً لدى هــذه الشعوب، لا تتحقق إلا عن طريق التنمية. إذن، فليس ثمة خلاف حول أهمية التنمية وجدواها في تحقيق النهضة وحصول تطور لدى شعوب العالم، لكنّ الخلاف حاصــل في كيفية التنمــية ونوعيتها، وأيّ المجالات أو الأنشطة تكون محلاً للتنمية، وإذا كانت هناك مجالات متعددة لابد من تنميــتها فأيها نقدم، فنهتم به قبل غيره، إلى غير ذلك من القضايا المتعلقة بطــرق وأســاليب التنمية التي نبحثها في الفقرات الآتية، ونستهلها ببيان مفهوم التنمية.

---

(١) مصــطلح الشعوب النامية أطلق والمراد به الشعوب التي في طريقها لإحداث عملية التنمية وإنْ كانت اللفظة تشعر بأنها قد حققت نمواً وتنمية إلا أنّ الواقع خلاف ذلك.

مفهوم التنميّة

نظـــرً لأهمـــية التنمية، والسعي الحثيث لتحقيقها في واقع المجتمعات الإنسانيّة، ولاسيما المتخلفة منها، فإنّ «مفهوم التنمية أصبح عنواناً للكثير من السياسات والخطط والأعمال، على مختلف الأصعدة، كما أصبح هذا المصطلح مثقلاً بالكثير من المعاني والتعميمات، وإنْ كان يقتصر في غالب الأحيان على الجانب الاقتصادي، ويرتبط إلى حدّ بعيد بالعمل على زيادة الإنـــتاج الذي يؤدي بدوره إلى زيادة الاستهلاك، لدرجة أصبحت معها حضـــارات الأمم تقاس بمستوى دخل الفرد، ومدى استهلاكه السنوي لـــلمواد الغذائـــية والسكنية بعيداً عن تنمية خصائصه ومزاياه وإسهاماته الإنسانيّة، وإعداده لأداء الدور المنوط به في الحياة، وتحقيق الأهداف التي خلـــق من أجلها»[1]. ناهيك عن أنّ هذه النظرة المادية لعملية التنمية قد اســـتكنت في عقـــول معظـــم شعوب العالم الإسلامي، وسيطرت على تفكيرهم، نتيجة الهيمنة الغربية، وسيطرة ثقافتها.

وبـــناء على ذلك، فإنّ هذا الأمر يدعونا إلى إعادة النظر في مفهوم التنمـــية مـــن مـــنظور إسلامي، وبيان مجالاتها، وأيها أولى بالاهتمام، ثم

---

(١) العســل، إبراهيم: التنمية في الإسلام، مفاهيم، مناهج وتطبيقات (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٦م) ص ١٣.

التركيز على التعليم بوصفه محوراً أساساً للتنمية والنهوض بالعالم الإسلامي، إذ تعدّ التنمية التعليميّة خلاصاً له من تراجعه الحضاري، ولكن قبل ذلك لابد من بيان مفهوم التنمية في الدِّراسات التنموية، حتى يتبين لنا أثناء المقارنة ما بين المنظورين - المنظور الإسلامي والمنظور التنموي - من تمايز وتباين.

١- مفهوم التنمية في الدِّراسات التنموية:

التنمية من الناحية اللغوية مأخوذة من نما نمواً، بمعنى الزيادة في الشيء، فيقال: نما المال نمواً أي زاد وكثر. وأما من الناحية الاصطلاحية فقد اختلفت الأقوال في تحديد مفهوم التنمية، وسبب ذلك اختلاف الآراء حول عملية التنمية من حيث مجالاتها وشموليتها؛ فبعضهم يقتصر في تحديد مفهوم التنمية على مجال معيّن كالمجال الاقتصادي مثلاً، فيقوم بتعريفها من خلال هذا المجال المحدد للتنمية، بينما بعضهم الآخر يرى أنها عملية شاملة لمختلف المجالات، فيكون تحديد المفهوم تبعاً لهذه الرؤية الشمولية للعملية التنموية.

وعلى الرغم من ذلك، فإنّ كلمة التنمية بوصفها مصطلحاً ذا معنى محدداً إذا أطلقت فتنصرف إلى معنى التنمية الاقتصادية في الغالب، ذلك أنّ الفكر الاقتصادي الغربي هو الذي وضع مؤشرات التنمية في العصر الحديث، من خلال منظور اقتصادي.

فضلاً عن ذلك، فإنّ التلازم بين التنمية والاقتصاد في الفكر الغربي، وانتشار هذا المنظور وهيمنته الناتجة عن الهيمنة الغربية على العالم، والتبعية التي تميّز بها العالم الثالث، جعلت المؤسسات الرسمية في العالم العربي والإسلامي، ولاسيما المسؤولين عن مجال التنمية، يتجهون هذا الاتجاه الغربي في حصر التنمية في المجال الاقتصادي وإهمال ما سواها، ظناً منهم أنّ هذا التبني سيقود حتماً إلى تنمية بلدانهم والخروج بها من التخلف والانحطاط الاقتصادي، ولكن الواقع خيب ظنّهم.

لكنّ هذا المفهوم للتنمية الذي يجعل من الإنتاج مقياساً لها بحيث إذا توفر نمو وزيادة في الإنتاج كانت هناك تنمية، وإذا انتفى انتفت، قد ضيّق من مجالات التنمية في المجتمعات الإنسانية، ثم حصر طاقات الإنسان المتنوعة، والتي يمكن تنميتها، في طاقة واحدة هي الطاقة المادية المتمثلة في الإنتاج والاستهلاك لما أنتج. زد على ذلك، فإنّ جعل الإنتاج مقياساً للتنمية، بحيث تكون التنمية الاقتصادية متوقفة على الإنتاج ليس بمقياس سليم في حدّ ذاته، بل إنّ الواقع يشهد بخلاف ذلك؛ فهذا المقياس قد حقق نجاحاً باهراً في البيئة الغربية، لأنّ هذا التوجه في العملية التنموية كان متماشياً ومنسجماً مع النظرة الغربية للكون والإنسان والحياة.

وأما بلدان العالم الإسلامي فقد تبنت المنظور الغربي للتنمية وقامت بتطبيقه رجاء حصول نمو وتطور اقتصادي، لكنّ هذا الرجاء باء بالخسران المبين، لا لضعف في الموارد الأولوية أو لقلة في الموارد الطبيعية. ولكن هذا

التصور والتوجه الغربي في التنمية كان دخيلاً على العالم الإسلامي الذي لـــه نظرة أو تصور خاص للكون والإنسان والحياة. وبناء على ذلك، فقد «انقضـــت ثلاثة عقود من «التنمية» وما تزال الدول -التي اصطلح على تسميتها بالنامية أو المتخلفة- تعاني من نفس الأزمات السياسية للمجتمع المـــتخلف، ولم تحقـــق تقدمـــاً مـــلحوظاً في معظم المجالات السياسية والاقتصادية، بل إنها تراجعت في كثير من هذه النواحي إلى مستويات من الممارسة والأداء والفعالية أدنى مما كانت عليه»[1].

فهذا الخلل في مفهوم التنمية جعل المهتمين بها يعيدون النظر في تحديد معـــنى التنمية إدراكاً منهم أنّ عملية التنمية ليست بمقصورة على الجانب الاقتصـــادي، لأنّ هناك جوانب أخرى لها أهميتها في تحقيق نجاح التنمية الاقتصـــادية، فضلاً عن الاهتمام بالإنسان بوصفه المحور الأساس للتنمية. وبـــناء عـــلى ذلك بدأ يظهر التوجه نحو التنمية الشاملة لمختلف مجالات الحياة والأنشطة الاجتماعية فنجمت «التنمية الاجتماعية» التي تهدف إلى إحداث تنمية بشرية.

وعـــلى الرغم من ظهور هذا النوع من التوجه نحو التنمية الاجتماعية، فـــإنّ بعضاً من علماء الاقتصاد حاولوا تسخيـــر التنمية الاجتماعية لخدمة التنمية الاقتصادية بحيث تستثمر الأولى لحساب الثانية. وهذا التصور للتنمية

---

(١) عـــارف، نصر محمد: **نظرية التنمية السياسية المعاصرة** (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٢م) ص ٣٩.

الاجتماعـــية نجده عند هيجنـــز (Higgins) الذي عرفها بقوله: «عملية استثمار إنساني تتم في المجالات أو القطاعات التي تمس حياة البشر مثل التعليم والصحة العامة والإسكان والرعاية الاجتماعية...الخ، بحيث يوجه عائد تلك العملـــية إلى النشـــاط الاقتصـــادي الذي يبذل في المجتمع»[1]. لكن علماء الاجتماع يخطّـــئون هذا المفهوم للتنمية الاجتماعية ويرون أنها «العملية التي تـــبذل بقصد ووفق سياسة عامة لإحداث تطور اجتماعي واقتصادي للناس وبيـــئاتهم، سواء كانوا في مجتمعات محلية أو إقليمية أو قومية، بالاعتماد على المجهودات الحكومية والأهلية المنسقة، على أنْ يكتسب كل منهما قدرة أكثر على مواجهة مشكلات المجتمع نتيجة لهذه العمليات»[2].

٢- مفهوم التنمية من منظور إسلامي:

ليس خافياً من خلال ما تقدم ذكره من تعاريف لمصطلح التنمية أنّ مفهومهـــا ليس بثابت ولا بمتفق عليه، بل كلٌّ يتناوله من الزاوية التي هي محل اهتمامه، بحيث يقصر نظره في العملية التنموية من خلال اختصاصه. وهذا الاختلاف يدعونا إلى محاولة تقديم مفهوم للتنمية يتماشى مع المنظور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، وذلك بالاعتماد على المصادر الأساس لشريعة الإسلام.

---

(١) نقـــلاً عن: عيد، إبراهيم حسن: دراســـات في التنمية والتخطيط الاجتماعي (مصر: دار المعرفة، ١٩٩٠م) ص٧٠.

(٢) شـــوقي، عـــبد المنعم: تنمية المجتمع وتنظيمه، ط٢ (القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦١م) ص ٤٣.

وبعـــد الإطـــلاع على كم هائل من تعاريف متنوعة لمفهوم التنمية، وجدتها لا تفي بالمقصود ولا تستوعب مجالات التنمية الكثيرة، بل لا نعدو الصواب إن قلنا: إنّ كلّ تعريف يركز على مجال معيّن من مجالات التنمية فيكون تعريفه لها مقصوراً على ذلك المجال، فلا يتعداه لغيره. ناهيك عن أنّ جلّ التعريفات إنْ لم تكن كلّها قد حصرت التنمية في الجانب المادي فحسب، محاكاة للفكر الغربي.

ومـــن ثَـــم، فقـــد عنّ لي أنْ أقدم تعريفاً للتنمية ينسجم مع النظرة الإســـلامية للكون والحياة والإنسان، فضلاً عن استيعاب مجالات التنمية جميعها، بعيداً عن أي تأثيرات غريبة على تعاليم الإسلام. وعليه، فأقول: إنّ التنمـــية من منظور إسلامي تعني: «عملية تطوير وتغيير قدر الإمكان نحـــو الأحســـن فالأحســـن، وتكون مستمرة وشاملة لقدرات الإنسان ومهاراتـــه الماديـــة والمعنوية، تحقيقاً لمقصود الشارع من الاستخلاف في الأرض، برعاية أولي الأمر، ضمن تعاون إقليمي وتكامل أممي، بعيداً عن أيّ نوع من أنواع التبعية». هذا التعريف يعبّر - في نظري - عن التصور الإســـلامي لمفهـــوم التنمـــية بوصفها مصطلحاً يعبّر عن عملية حضارية مســـتأنفة أو مســـتحدثة. ولذا، فيمكن إيضاح التعريف الذي قدمته من خـــلال بيان خصائص التنمية الإسلامية الواردة في التعريف مرتبة حسب ورودها فيه.

٣- خصائص التنمية الإسلاميّة:

أ – التطوير والتغيير: إنّ أهم خاصية للتنمية هي كونها عملية تهدف إلى تطويـر وتغـيير حـياة الناس في مجتمـع ما، ولذلك لا يكاد يخلو تعريف من الإشـارة إلى هذا العنصر الأسـاس في عمـلية التنمية أو ما يشـاكله، مـثل التقدم والرقي والتحسين وغيرها. ولكن عملية التطوير والتغـيير هذه لابد أن يراعى فيها مدى قابلية الأفراد واستطاعتهم لذلك، حـتى لا يكلف الناس أكثر من وسـعهم أو يحملوا ما لا يطيقون فتفشل العملـية مـن حيث يراد لها النجاح. ولذا، ورد في التعريف تقييد عملية الـتطوير والتغيير بعبارة «قدر الإمكان» مراعاة لاختلاف الناس من حيث قابليتهم للعملية التنموية.

ثم إنّ عملـية التغيير تكون في التنمية دائماً نحو الأحسن فالأحسن، وذلـك لوجود فرق مهم بين كلمتي التغيير والتنمية؛ فالتنمية دائماً تعني التحسـيـن والرقي والزيادة في الشيء، بينما التغييـر قد يكون لما هو حسـن كما يكون لما هو سيئ. وقد ورد لفظ التغيير في موضعـين من القـرآن الكريم، أولهما في سورة الأنفال في قوله تعالـى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال:٥٣)، وثانيهما في سورة الرعد وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ (الـرعد:١١). فالتغـيير

الـــوارد في الآيـــة الأولى إنما هو تغيير نحو السيئ، بحيث إنّ الله لا يُـــغيِّر نعمـــته إلى نقمة إلا إذا حصل ما يقتضي ذلك، وهو التغيير السيئ لأنفس قوم ما. فنظراً لهذا الفرق المهم بين التنمية والتغيير قيّدت التغيير الوارد في التعريف بكونه «نحو الأحسن فالأحسن».

ب- الاستمرارية: إنّ العملية التنموية وتحقـــيق مهمتها الحضـــارية لا تـــتم في يوم وليلة أو في عشية وضحاها، بل تأخذ زمناً يطول ويقصر على قدر عزائم الناس الساعين إلى التنمية. ولكن عملية التنمية لا تتوقف عند تحققها، بل لابد من المحافظة عليها وتحقيق المزيد منها، وبذلك تكون التنمـــية عملـــية مســـتمرة نحـــو الأحســـن فالأحسن. وهذه الديمومة والاســـتمرارية للعملية التنموية تكون مستغرقة لحياة الأفراد والمجتمعات عـــلى حدّ السواء؛ بمعنى أنّ الأفراد يستنفدون أعمارهم من أجل التنمية، ويحرصون على نقل ذلك لمن يخلفهم في المجتمع.

بناء على ذلك، تكون هذه العملية تواصلية استمرارية؛ مستمرة على مستوى الأفراد، متواصلة على مستوى المجتمعات، بحيث تتواصل العملية التـــنموية مـــن جيل إلى آخر دون توقف. فإذا توقف جيل ما عن القيام بذلك يؤدي ذلك إلى خلل في العملية غالباً ما يؤدي إلى تراجع حضاري، كمـــا حصل في العالم الإسلامي الذي شهد نهضة حضارية، ومن ثم بدأ تراجع طويل، والسبب في ذلك راجع إلى عدم استمرارية العملية التنموية وتواصلها بين أجيال مجتمع ما. فضلاً عن ذلك، فإنّ خاصية الاستمرارية

في التنمية نابعة من النظرة الإسلاميّة السامية للكون والحياة والإنسان؛ فالإنسان خلقه الله ليكون خليفة له في الأرض كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠). وهذا الاستخلاف لا مجال فيه للعبث وإضاعة الوقت فيما لا ينفع: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (القيامة:٣٦)، وقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون:١١٥).

ثم إنّ هذه النظرة السامية للحياة مبنية على التصور القرآني لخلق هذا الكون وأنه ليس للعب ولا للعبث كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ (الأنبياء:١٦)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ (الدخان:٣٨). إذن، فالإنسان لم يخلق سدى، ولا الكون خلق عبثاً أو لعباً، فلابد أن يستثمر الإنسان حياته لتنمية ما في الكون، وهي المتمثلة في عملية التعمير: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود:٦١)، حتى يؤدي مهمّة الاستخلاف التي نيطت به من قِبَل خالقه ﷻ، ويقوم بعملية التنمية والتعمير خير قيام.

ويضاف إلى ذلك، أنّ الله ﷻ كلّف الإنسان بتعمير الكون، وتنمية ما فيه، واستثماره. وهذا كلّه في مقدور الإنسان واستطاعته وليس فيه

تكليف له بما لا يطيق، لأنّ المولى ﷻ حين كلّف عباده بذلك يسّر عليهم القيام به، وذلك بأنْ سخّر لهم ما في الكون وذلل لهم الأرض تذليلاً. وقد وردت عدّة إشارات إلى ذلك في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية:١٢-١٣)، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك:١٥).

ثم إنّ قول الرسول ﷺ: « **إِنَّ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْنَا**»[1] ينسجم انسجاماً تاماً مع المنظور القرآني للحياة والكون والإنسان. والرهبانية ليست بتشريع سماوي، بل هي اشتراع بشري ابتدعته الأمة العيسوية (المسيحية) فجعله الله فرضاً عليهم ابتلاءً لهم. وهذا الأمر تدل عليه الآية دلالة صريحة وهي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، ورقمه ٢٤٧٠٦، والدارمي في سننه، كتاب النكاح، ورقمه ٢٠٧٥، والحديث كاملاً: «عَنْ عُرْوَةَ قَالَ : دَخَلَتِ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ، أَحْسِبُ اسْمَهَا خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ، عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ بَاذَّةُ الْهَيْئَةِ، فَسَأَلَتْهَا: مَا شَأْنُكِ؟ فَقَالَتْ: زَوْجِي يَقُومُ اللَّيْلَ وَيَصُومُ النَّهَارَ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَرَتْ عَائِشَةُ ذَلِكَ لَهُ، فَلَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُثْمَانَ فَقَالَ: يَا عُثْمَانُ إِنَّ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْنَا أَفَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ، فَوَاللَّهِ إِنِّي أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَحْفَظُكُمْ لِحُدُودِهِ».

بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (الحديد:٢٧).

وفي تقديـري أنّ الله سـبحانه لم يشرع الرهبنة لعباده، بل كانت مـبادرة من أتباع سيّدنا عيسى (عليه السلام)، فضلاً عن نهي الرسول (عليه السلام) عن ذلـك لأنّ الرهبـنة بمعنى الانقطاع إلى أداء العبادات فحسب تؤدي إلى تعطـيل مهمـة الإنسان الاستخلافية، وما ينتج عنها من تعطيل لعمارة الأرض وتنمـية لما في الكون. ولذا، فهناك تعارض بين الرهبنة وعمارة الأرض، أو قـل بين الرهبنة والتنمية، ولا يزول ذلك إلا بذهاب إحداهما وبقـاء الأخـرى؛ فجعـل الله سبحانه وتعالى عمارة الأرض مُـناطة بالإنسان ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هـود:٦١)، ونهانا رسوله الكريم (عليه السلام) عن الرهـبنة، وبذلك رفعـت الرهبنة المبتدعـة، واسـتمرت عمـارة الأرض المشـرعة مـن الله، وفي ذلـك إشـارة إلى أنّ عملية التعمـير والتنمية مـتواصلة ومسـتمرة، ليسـت بمقصـورة على جـيل دون آخر، لأن مهمـة الاسـتخلاف للناس جمـيعاً، فليسـت مهمة جيل دون آخر.

ج – الشـــمولية: إنّ العملية التنموية لا تقف عند التطوير والتغيير المســـتمر نحو الأحسن فالأحسن، بل لابد أنْ يضاف إلى ذلك كلّه ميزة أخـــرى وهـــي الشـــمـــولية. والمقصود بالشمـــولية في عملية التنمية الإســـلاميّة أنْ تكـــون فيها مراعاة لقدرات الإنسان وإمكانياته المختلفة، سواء أكانت مادية أم معنوية (روحية، نفسية، عقلية...). فهذه الشمولية بـــالمعنى المـــتقدم تعـــد من خصوصيات التنمية الإسلاميّة التي تنفرد بهذه الخاصـــية عن سواها، حيث «إنّ القرآن الكريم يخلو تماماً من ثنائية النفس والجســـد الـــتي شـــغلت الفكر الأروبي الديني والفلســـفي، ذلك أنّ الإنســـان في المنظور القرآني هو روح وجســـم، ولم يرد في القرآن قط ما يحط من قدر الجسم»[1].

وبـــناء على ذلك، فلا غرابة أنْ يكون الجسم أحياناً سبباً للاختيار والـــتفوق على الآخرين كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ﴾ (البقرة:٢٤٧). وحتى في مســـألة الحقـــوق تختفي ثنائية الجسم والروح وذلك لتكاملهما ولتسوية

---

(١) الجابري، محمد عابد: «الروافد الفكرية العربية والإسلاميّة لمفهوم التنمية البشرية»، نـــدوة التنمـــية البشـــرية في الوطن العربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥م) ص ٤٩.

الإســـــلام بيـــنهما، فلكلّ منهما حق على الإنسان كما ورد في قول الرسول ﷺ:«... **إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»[1].

وفي تقديـــري المتواضع أنّ فشل العمليات التنموية في العالم الثالث، ولاســـيما العـــالم الإســـلامي، سببه الرئيس أنها لم تكن شاملة لقدرات الإنســـان ومهاراته المادية والمعنوية، حيث إنّ أكثرها يركز على الجانب المـــادي الذي يراعي التنمية الاقتصادية المحصورة في زيادة الإنتاج وتنميته ولو كان ذلك على حساب الجانب المعنوي في الإنسان، إذ لا عبرة به في عملية التنمية. ولا شكّ أنّ هذا الأمر يقود حتماً إلى فشل العملية التنموية عاجلاً أو آجلاً، بل إنّ واقع العالم العربي والإسلامي اليوم يعاني من هذه المشـــكلة في عملية التنمية، حيث «يشهد نسق القيم في المنطقة (العربية والإسلامية) صعوداً للقيم المادية والفردية وتراجعاً للقيم المعنوية والمجتمعية. وهـــذا الـــتحول في القـــيم يهدد دون شكّ التوجه الإيجابي لقيم المجتمع ومســـلكيات أفـــراده وجماعـــته، ويطرح تحدياً لعملية التنمية، والتكامل المنشودين»[2]. ولذا، فإنّ عملية التنمية في العالم الإسلامي لابد أن تتصف بالشـــمولية حتى تحقق ما تصبو إليه من تطوير وتغيير لهذا الواقع المتردي، فلا تكون مقصورة على قطاع دون آخر ولا مجال دون آخر.

---

(١) أخـــرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب ورقمه ٥٦٦٩، ومسلم، كتاب الصيام، ورقمه ١٩٧٣.

(٢) الكواري، علي خليفة: نحو استراتيجية بديلة للتنمية الشاملة (بيروت: مركز دراسات الـــوحدة العربية، ١٩٨٥م) ص٣٢.

د – الوعـــي بمقصود الشارع من الاستخلاف: غني عن البيان أنّ الله سبحانه وتعالى استخلف الإنسان في الأرض، وسخر له ما في الكون جميعاً، وجعل الأرض له ذلولاً، ليبسر له عملية القيام بمهمّة الاستخلاف وتعمير الأرض. ولكن الأمر المعضل الذي يعسر علاجه هو غياب الوعي مـــن قِـــبل أبناء العالم الإسلامي بمقصود الشارع من الاستخلاف. وقد تقدم الكلام على معنى الاستخلاف أثناء بيان ما المقصود بالاستمرارية في عملـــية التنمـــية من منظور إسلامي، ولست أريد أنْ أعيد ما تقدم هناك، ولكـــن أريـــد أنْ أبـــيِّن أهمية الوعي بمقصود الشارع من الاستخلاف في عملية التنمية، إذ لا يكفي مجرّد العلم بذلك ومعرفته، بل لابّد أنْ يكون هذا الوعي حاضراً أثناء القيام بهذه المهمّة ومصاحباً لها، بل لابد أنْ يكون دافعاً قوياً نحو قيام أبناء العالم الإسلامي بمهمتهم نحو حصول التنمية الحضارية.

ولـــذا، فإنّ الوعي بمقصود الشارع من الاستخلاف يكون خير دافع للعـــالم الإسلامي من أجل قيامه بالعملية التنموية وتحقيق عمارة الأرض واستثمار ما في الكون. وسبب ذلك أنّ الإنسان لابد أن يكون له هدف يســـعى إليه، ودافع ديني أو عقدي يكون حافزاً له للعمل وبذل الجهد، بغض النظر عن قيمة هذا الدافع ونوعيته. وكلّما كان واعياً ومستحضراً لذلـــك الدافع الديني أو العقدي كان جهده أكثر وعمله أفضل، ولاسيما إذا كـــان المطلوب منه مستمراً طيلة حياته ومتواصلاً بين الأجيال، مثلما هو الحال بالنسبة للاستخلاف في التصور الإسلامي.

وهـــذا الأمر يستدعي من المسلمين اليوم استعادة الوعي الذي كان علـــيه حال الجيل الأول، الذي قام بالتنمية وأنجز تبعاً لذلك حضارة وقام بمهمّـــة الاســـتخلاف خير قيام. ولا أقصد بالوعي هنا مجرّد العلم النظري بمقصـــود الشارع من الاستخلاف، بل ينبغي أنْ يكون هذا الوعي أو هذا العلم مقترناً بالعمل، فلا يكون مجرّداً عن العمل، فإنّ مثل هذا الوعي، وهو حال الأكثرية من أبناء العالم الإسلامي اليوم، لا يحقق المراد منه، ولذا اقترن الاســـتخلاف بـــالعمل والتكلـــيف، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:١٤).

هـــ - الـــرعاية: إنّ ما نقواه عن التنمية والتعليم وما ينتج عن ذلـــك من نهوض حضاري، كلّه يبقى حبراً على ورق إذا لم تتم رعايته، لأنّ التنمـــية التي تحقق نهضة حضارية ليست بعملية فردية، بل هي عملية حضـــارية يشـــترك فيها أفراد العالم الإسلامي جميعاً، وتتضافر جهودهم لتحقـــيق التنمية المطلوبة للنهضة. ولذا، فمن الأهمية بمكان أن يتولى أولو الأمـــر في العالم الإســـلامي تبني المشـــروع التنموي والسهر على تنفيذه وأنْ يحظى برعايتـــهم ويحثوا الناس على ذلك فـــ«إنّ الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[1] كما قال بحق سيدّنا عثمان ﷺ.

وبـــناء على ذلك، فإنّ المقصود بالرعاية هنا أنْ يهتم أولو الأمر في العـــالم الإســـلامي بأمر التنمية، وأنْ تكون الرعاية شاملة لمجالاتها جميعاً.

---

(١) الهـــندي، عـــلاء الديـــن علـــي المتقي بن حسام الدين: **كنـــز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق محمد عمر الدمياطي (بيروت: الدار العلمية للكتب، ١٩٩٨م)٧/٢١٣.

فضلاً عن ذلك، فلابد أنْ تكون هذه الرعاية متوفرة للجميع فلا تكون متوفرة لفئة وغير متوفرة لأخرى، لأنّ ذلك من شأنه أنْ يجعل عملية التنمية مقصورة على فئة معينة، وبذلك تكون التنمية تنمية نخبوية لا تؤتي أكلها لتحقيق نهضة حضارية. ثم إنّ عملية التنمية لكي تؤدي مهمتها لابد أنْ يتوفر فيها عنصر التخطيط والتنظيم الذي يحرص على ذكره كثير من التنمويين أثناء تقديم مفهوم لمصطلح التنمية. وزيادة على ذلك، فإنّ حديثنا هنا عن التنمية وليس عن النمو، لوجود فوارق بينهما، أهمها أنّ التنمية تعني تدخل الدولة بالتخطيط والتنظيم لإجراء عملية التطوير والتغيير السريع، بينما النمو يكون تلقائياً دون تخطيط ويعبّر عنه أيضاً بالنمو الطبيعي(١)، ومعنى ذلك أن التنمية لابد أنْ تتم تحت رعاية وتدخل الدولة.

ولذا، فالتخطيط والتنظيم، أو الرعاية بتعبيرنا، لعملية التنمية يُساهم إسهاماً كبيراً في نجاحها، ولاشك أنّ مثل هذا الأمر لا يقوم به خير قيام إلا من له القدرة على ذلك وهي الدولة، من خلال أجهزتها ومؤسساتها

---

(١) انظر: الرداوي، تيسير: التنمية الاقتصادية (حلب: مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ١٩٨٥م) ص ٧٨-٨٠. ويلاحظ هذا الفرق أيضاً من الناحية اللغوية، فإنّ النمو يعني الزيادة مطلقاً بينما تنمية الشيء تعني فعل أو إحداث النمو، وفي اللغة الإنجليزية يستخدم للمصطلحين لفظتين مختلفتين؛ فيعبرون عن النمو بـ: Growth وعن التنمية بـ: Development فيطلقون Economic Growth للتعبير عن النمو الاقتصادي و Economic Development للتعبير عن التنمية الاقتصادية.

التي تستطيع أنْ تشرف على تسيير العملية التنموية تخطيطاً وتنظيماً وتنسيقاً وتنفيذاً، أو قل كلّ ما تراه صالحاً لذلك. وهذه الأمور كلّها تدخل تحت معنى الرعاية. وعلى الجملة، فإنّ الرعاية بالمعنى المتقدم لابد من توفرها في العملية التنموية، حيث إنّ المبادرات الفردية والتنمية النخبوية مع غياب التخطيط والتنظيم لا تجدي نفعاً ولا تحقق نهضة حضارية. ناهيك عن أنّ الحقائق التاريخية تؤيّد ذلك، إذ إنّ الأمم التي حققت نهضة حضارية إنما كانت بفضل العملية التنموية الشاملة المخططة والمنظمة تحت رعاية أولي الأمر منهم.

و - **التعاون والتكامل:** فإذا قام أولو الأمر في العالم الإسلامي بواجب الرعاية للتنمية، من حيث الاهتمام بها والتخطيط لها وتنظيمها وتوفيرها لأفراد المجتمع جميعاً، فبعد هذا كلّه لابد من استجابة المعنيين بعملية التنمية وهم أفراد الأمة الإسلاميّة وذلك بالتعاون فيما بينهم، ولاسيما أنّ شرعنا الحنيف يحثنا على التعاون فيما فيه خير وصلاح كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (المائدة:٢)، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ (المؤمنون:٥٢). ولذا، فإنّ عملية التنمية لابد أنْ تكون تنمية للأمة الإسلاميّة كلّها، وذلك

بتعاونهم فيما بينهم وتكاملهم، وإلا فلا تنمية بفقدان ذلك كلّه. وليس يخفى على ذي لبّ أنّ التنمية في العالم الأروبي، التي كانت تنمية للأمة الأروبية كاملة، شملت أروبا كلّها رغم ما بينهم من خلافات واختلافات تم تجاوزها من أجل التنمية.

وهذا النوع من التعاون يكون على مستوى إقليمي، بحيث إنّ كلّ إقليم من أقاليم العالم الإسلامي يقوم أفراده بتعاون داخلي من أجل إحداث تنمية إقليمية. فإنْ تحقق ذلك، يُنتقل إلى نوع آخر من التعاون أسمى وأرقى من الأول، بحيث يتجاوز حدود الإقليم الواحد ليحدث تعاون خارجي بين أقاليم العالم الإسلامي جميعاً. وهذا النوع من التعاون الخارجي عبرت عنه بالتكامل الأممي، لأنّ لكلّ إقليم إسلامي خصوصيات يتميّز بها عن غيره كما أنّ له نقائص.

فإذا تم التكامل فيما بينهم في مجال التنمية؛ فيستفيد كلّ إقليم إسلامي من خصوصيات ومميِّزات الآخر، كما يستكمل النقص الذي به من غيره، ولا يتحقق ذلك إلا بالتكامل الأممي. فضلاً عن ذلك، فإنّ هذا التعاون التكاملي يحقق وحدة العالم الإسلامي فيزداد أمر التنمية قوّة، على خلاف ما لو كانت هناك فرقة واختلاف بين أقاليم العالم الإسلامي فتضعف عملية التنمية وتؤول إلى الفشل، وصدق الله العظيم إذ نبه على

هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟...﴾ (آل عمران:١٠٣)، وقولـــه تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ (الأنفال:٤٦).

ز – **الاســـتقلالية:** لكلّ أمة خصائص تميّزها عن غيرها، ولها تراثها الديني والمعرفي الذي يكوِّن بمجموعه ثقافتها الخاصة بها. وبناء على ذلك، فإنّ العملية التنموية لابد أنْ تكون نابعة من خصائص ومميِّزات تلك الأمة، منســـجمة مـــع تراثها الديني والمعرفي، ولا تكون مستعارة أو مستوردة. وبعـــبارة أخرى، فإنّ عملية التنمية لابد أنْ تـــتم بعيداً عن أيّ نوع من أنـــواع التبعية بحيث يصح أنْ نطلق عليها «تنمية مستقلة». وعليه، فإنّ العـــالم الإسلامي إذا أراد أنْ يقوم بعملية تنموية ناجحة وأنْ يحقق نهضة حضـــارية فليس من سبيل أمامه إلا التنمية المستقلة التي يعتمد فيها على ذاتـــه، ولا ينتظر تنميةً أو تطويراً من الآخرين ولكن ينتظر منهم تعميقاً لتنمية التبعية ومزيداً من الاستغلال.

إذن، فالتنمية الحقيقية للعالم الإســـلامي لا تتم عن طريق الاستيـــراد أو تقليد نموذج معيّن في التنمية، بل لابد أنْ تكون نابعة من داخله معبّرة عن وعيه وإدراكه بأنّ عملية التنمية لابد أنْ تكون مستقلة بعيدة عن أي تأثيرات خارجـــية وغريـــبة عنه. ولا غرابة أنْ يكون السبب الرئيس لفشل المشاريع التـــنموية في العالم الإسلامي، ولاسيما العربي منه، أنها لم تكن مستقلة، بل

كانت متصفة بالتبعية والتقليد للنموذج الغربي في التحديث والتطوير. فكانت عملية التنمية وافدة من دول تختلف عن واقع المجتمعات الإسلاميّة.

ولـــذا، فقد ذهب كثير من المهتمين بالتنمية في العالم الثالث إلى أنّ «أزمـــة التنمية التي تعيشها الآن الدول المـــتخلفة تعود إلى هيمنة الفكر الغـــربي التقلـــيدي وعـــدم قـــدرة هذا الفكر على تحليل أوضاع الدول المـــــتخلفة، هذا الفكر بما في ذلك التراث الفكري التنموي الغربي بعد الحرب العالمية الثانية...أي يجب الاعتراف بأننا مازلنا بعيدين عن تشكيل فكر تنموي عربي مستقل»[1]. زد على ذلك، فإنّ الواقع التاريخي يصدّق ذلك، إذ إنّ الأمم قديماً وحديثاً حققت شهودها الحضاري بالاعتماد على ذاتها من خلال ما حققته من استقلالية في التنمية، وليس ببعيد عنّا التنمية الحديثة في اليابان وما نتج عنها من تحديث وتطوير لمجتمعها مع احتفاظها بثقافتها الخاصة ومعتقداتها ولغتها.

وبـــناء على ذلك، «نستطيع أنْ نجزم، من خلال الاستقراء التاريخي والـــتجارب الحديثة في المجتمعات الإسلاميّة اليوم، أنّ عملية النهوض التي تعني التنمية بمعناها الشامل لا يُمكن أنْ تحقق إلا من الداخل الإسلامي»[2]، أي عـــن طـــريق استقلاليتها بالعملية التنموية، فإذا تم تجاهل هذا الشرط

---

(١) الرداوي، تيسير: التنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص٢٩٠.

(٢)عمر عبيد حسنه، تقديم كتاب التنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص٩.

الضروري في التنمية أو التخلي عنه فإنّ ذلك يساهم في تكريس التخلف ويـزيد في تنمية التبعية. وهذا الأمر يفسّر لنا فشل التجارب التنموية في العـالم الإسلامي منذ أربعة أو ثلاثة عقود تقريباً، إذ كانت تجاربهم تنمية للضياع، وضياعاً لفرصة التنمية الحقيقية، وهي التنمية المستقلة، والتي عبّر عـنها تعـبيراً دقـيقاً بعض الباحثين إذ سماها: «التنمية المفقودة»، يقول جورج قرم في هذا الصدد: «ليست قضية تخطيط اقتصادي بإجراء بعض المعـادلات الرياضـية وبـنقل معدات تجهيزية إنتاجية من العالم المتقدم صناعياً، واستقدام الأموال في حال نقصانها، إنما القضية هي قبل أي شيء آخر اتساق مجتمعي واتزان حضاري. وهذا بدوره يتطلب وجود قيادات فكـرية ونخـب اجتماعـية لها رؤية واضحة في أمور الرقي والانحطاط الحضـاري، ولهـا مواقـف راسخة مستقلة ضمن هذه الرؤية هي على اسـتعداد للتضحية في امتيازاتها الآنية لتأمين مستقبل المجتمع»[1]. ولكن اسـتقلالية التنمية لا تعني بالضـرورة عـدم الاسـتفادة من الآخرين ومـن تجـاربهم، بـل يبقى المجال مفـتوحـاً للاسـتفادة من تجارب الآخـرين، فليس هناك منافـاة بين الاستقـلالية والاسـتفادة، ولكن المنافاة واقعة بين الاستقلالية والتبعية لكونـهما ضـدان لا يجتمـعان؛ فإما استقلالية وإما تبعية.

---

(١) قرم، جورج: التنمية المفقودة (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١م) ص٦.

أثر التعليم
في تنمية العالم الإسلامي

نلاحظ من خلال ما تقدم من كلام على مفهوم التنمية أنّ هذه العملية الحضارية لها مجالات متعددة؛ منها التنمية الاقتصادية التي تُعنى بتطوير الإنتاج وتحسينه وما تفرع عنها من التنمية الصناعية والتنمية الزراعية والتنمية التقنية وغيرها. وهناك أيضاً التنمية الاجتماعية التي تعنى بتغيير وتطوير المجتمع ككل؛ على جميع المستويات وفي كلّ الميادين، ثم أصبح يعبّر عنها في الدراسات الاجتماعية بالتنمية البشرية، إلى غير ذلك من مجالات التنمية الأخرى.

وانطلاقاً من شمولية التنمية في المنظور الإسلامي، فإنّ من الأمور المهمّة في هذا الصدد ترتيب هذه المجالات من حيث الأولوية، بحيث يتم تقديم الأهم فالأهم والأنفع فالأنفع، مع التسليم طبعاً بأهميتها ونفعها جميعاً. وفي تقديري أنّ أهم مجال للتنمية هو المجال التعليمي الذي يجب أنْ يعطى الأولوية في المشروع التنموي الإسلامي بحيث يكون نقطة الانطلاق للتطوير والتغيير الشامل، ويمكن بيان ذلك من خلال الوقوف على الهدف الأساس للتنمية الإسلاميّة من حيث الأولوية والاهتمام والمكانة التي أعطاها الإسلام للعلم والتعليم.

١- هدف التنمية الإسلاميّة:

إنّ المشـــاريع التنموية مهما اختلفت أهدافها أو تعددت أغراضها، فإنهـــا تـــتفق في الهدف العام والمتمثل في تحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته، وتقدم وتطور المجتمع اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً. وعلى الرغم من هذا الاتفـــاق فقد اختلفت المناهج المستخدمة لتحقيق ذلك، وهذا الاختلاف سببه الرئيس موقف التنمويـــين من العملية التنمـــوية؛ هل هي وســـيلة أم غايـــة؟ فالذي يرى أنّ التنمية وسيلة لتحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته، ففـــي هذه الحال تكون التنمية خادمة للإنسان محققة لمصـــالحه، وأما من يـــرى أنهـــا غاية في ذاتها فيجعل الإنسان خادماً لها ولو كان ذلك على حســـاب سعادته، وفي هذا الموقف تكون التنمية من أجل التنمية وليست من أجل الإنسان.

ولعـــلّ العالم الغربي المعاصر خير مثال يوضح لنا الموقف الثاني الذي يتخذ التنمية غاية لا وسيلة. فالعالم الغربي اتخذ من التنمية الاقتصادية غاية في حـــدّ ذاتها، ولذلك كان مقياسها الإنتاج ليس سعادة الإنسان نفسه؛ فـــإذا حدثت تنمية وتطوير في الإنتاج فقد حقق تنمية اقتصادية ولو رافق ذلك تخلف الإنسان نفسه وتدهور العلاقات الاجتماعية وشقاء كثير من أبناء هذا المجتمع. ولذا، فإنّ هذا الموقف الغائي من التنمية جعلت الإنسان الغـــربي يكـــدح ليلاً نهاراً لخدمة التنمية من أجل زيادة الإنتاج وتطويره

وتحسينه، وإنْ كان يظن ظناً قوياً أن التنمية خادمة له ومحققة لمصالحه، ولكنّ الواقع يكذب هذا الظنّ، إذ على الرغم من حصول تنمية اقتصادية، فإنّ المجتمعات الغربية تعاني من المشكلات الاجتماعية ضروباً ومن الظواهر الإجرامية ألواناً وعديداً من النزعات غير الأخلاقية وغيرها[١]، مما يدل دلالة واضحة على أنّ التنمية الاقتصادية لم تحقق سعادة للإنسان الغربي لأنها كانت غاية في حدٍّ ذاتها وقد حققها فعلاً فلا مزيد عليها.

وأما الموقف الإسلامي من التنمية على غرار ما تقدم من كلام على المنظور الإسلامي لها فتعد وسيلة لتحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته في الدنيا والآخرة. وهذا الموقف مبني على التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان حيث «إنّ الإنسان غاية جميع ما في الطبيعة، وكلّ ما في الطبيعة مسخر له»[٢]، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:١٢-١٣)،

---

(١) مثال ذلك ظاهرة الانتحار الفردي أو الجماعي وانتشارها في العالم الغربي التي لا تكاد تجد لها نظيراً في مجتمعاتنا رغم تخلفها وتدهور وضعيتها الاقتصادية مما يدل على يأس الإنسان الغربي من تحقيق سعادته ورفاهيته من خلال التنمية المزعومة، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ويمكن مراجعة الكتب التي اهتمت بالمشكلات الاجتماعية في المجتمعات الغربية.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص٣٥٣.

وقولـــه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملـك:١٥). وأنـزل القرآن من أجل الإنسـان أيضاً كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الـنحل:٤٤)، وخلق الإنسان وجعل حـياته مقصـداً شرعياً لابد من المحافظة عليها، فلا يجوز الاعتداء عليها بدون حق، ولذلك كلّه حرّم القتل تحريماً فيه غلظة وشدة كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٩٣)، وسبب ذلك أنّ القتل يحول بين الإنسان وبين تحقيق مهمته في الاستخلاف، وفي ذلك قضاء على عمارة الكون وتنميته واستثمار ما فيه.

وبـناء عـلى ذلك، فإنّ هدف التنمية الإسلاميّة هو الإنسان، ولذا تكون العملية التنموية وسيلة غايتها تحقيق سعادة الإنسان المادية والمعنوية تحقيقاً ينسجم مع قصد الشارع من استخلافه في الأرض. إذن، فالإنسان هـو محور التنمية الإسلاميّة وهدفها الوحيد، ولذلك عندما قدمت تعريفاً للتنمـية من منظور إسلامي أكدت على محورية الإنسان في هذه العملية، بحيـث جعلتها تطويراً شاملاً لقدرات الإنسان ومهاراته المادية والمعنوية. فكون الإنسان محوراً للتنمية الإسلاميّة وغايتها يعطي أولوية للتعليم بحيث يعتنى بالتنمية التعليمية ويركز عليها قبل غيرها من مجالات التنمية المتنوعة.

٢- أولوية التنمية التعليمية في الإسلام:

تبيّن من خلال الكلام في مفهوم التنمية وهدفها من المنظور الإسلامي أنّ الإنسان محورها وهدفها بوصفه الكائن الوحيد في هذا الكون القادر على إحداث تغيير وتطوير والقيام بعملية تنموية لما في الكون، وذلك بما اختصه الله ﷻ به عن بقية الكائنات. وبناء على ذلك، فإنّ التنمية تحدث من أجل الإنسان، ولا يتم تحقيقها أيضاً إلا بجهود الإنسان نفسه، فهو الذي يخطط لها ويسهر على تنظيمها ويشرف على تنفيذها، وذلك كلّه يتطلب تهيئة الإنسان وتأهيله للقيام بالعملية التنموية. ولذا، فليس هناك من وسيلة تهيئه وتؤهله للقيام بهذه العملية أفضل وأولى من التعليم. ومن ثَم، فلا غرابة أنْ يهتم العالم الإسلامي أول ما يهتم بالتنمية التعليمية ويرعاها حق رعايتها ليحقق التنمية المنشودة.

وعليه، فإنّ نقطة الانطلاق في التنمية الإسلاميّة والنهوض الحضاري إنما تبدأ من التعليم، فـ«مهما حاولنا أو توهمنا أنّ النهوض والتغيير والإصلاح يمكن أنْ يتم خارج مواضع التعليم، فإنّ التاريخ والواقع والتجربة الذاتية والعالمية تؤكد أنّ التربية والتعليم السبيل الأوحد إلى درجة يمكن أنْ نقول معها بدون أدنى تحفظ: إنّ التربية هي تنمية بكلّ أبعادها، وأي مفهوم للتنمية بعيداً عن هذا فهو مفهوم جزئي وعاجز عن

تحقيق الهدف»[1] المطلوب من تلك العملية. وبعبارة أخرى، فإنّ التعليم يعدّ السبيل الوحيد الذي يمثل الانطلاقة السليمة للنهوض بالعالم الإسلامي من التخلف والتدهور والانحطاط الحضاري وتحقيق تنمية شاملة سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى المجالات الاجتماعية.

وزيادة على ذلك، فإنّ مما يزيد التعليم أولوية من حيث التقديم والاعتناء به قبل غيره أنه يعدّ التنمية الأم لبقية المجالات التنموية، إذ إنّ تعليم الإنسان المسلم وتربيته، يجعله مهيئاً للقيام بالعملية التنموية في أيّ مجال، بمعنى أنّ الفرد المتعلم أينما توجهه لا يأتي إلا بخير؛ فإذا توجه إلى مجال الاقتصادي ساهم في تنميته وتطويره، وكذلك إذا توجه إلى المجالات الاجتماعية أو المجالات العلمية والتقنية أو غيرها. ومعنى ذلك أنّ التنمية التعليمية تؤدي حتماً إلى تنمية المجالات الأخرى وتساهم مساهمة فعّالة في تطويرها، والعكس ليس بصحيح، لأنّ الواقع التاريخي قديماً وحديثاً يدل على هذا الأمر وفي العيان غنية عن البيان.

وهذا الكلام ليس نظرياً، ولعل بعضهم لا يغنيهم العيان فيطالب بالدليل، فنقول: إنّ التجارب تصدق ذلك وتثبته وتنفي عكسه وتكذبه، فمثلاً «مع بداية الستينات اتجهت نماذج النمو الاقتصادي إلى

---

(١) سانو، قطب مصطفى: النظم التعليمية الوافدة في أفريقيا قراءة في البديل الحضاري، مرجع سابق، ص ٢١. والكلام المنقول أعلاه من كلام الأستاذ عمر عبيد حسنه من تقديمه للكتاب.

الاســـتثمار في البشر من خلال إعطاء أولوية للتعليم والتدريب، وظهر في تلـــك الفـــترة مفهـــوم تنمية الموارد البشرية»[1]، مع أصوله الاقتصادية الواضـــحة. ولقد دلّت بعض الدِّراسات التطبيقية التي قام بها كنـــدريك (KENDRICK) وشـــولتز(SCHULTZ) وكازنتسى (KUZNETS) على نتائج مذهلة حول أثر تحسين قدرات البشر في النمو الاقتصادي بحيث إنّ ٩٠% مـــن ذلـــك النمو في الدول الصناعية كان مرجعه تحسين قدرات الإنسان ومهاراته والمعرفة والإدارة... فالقدرة الإنسانية وليس رأس المال هي العنصر الدافع رقم واحد»[2].

وهناك أمر آخر ذو أهمية، إذا جعلنا التنمية التعليمية نقطة الانطلاق الضـــرورية للتغيير والتطوير والنهضة الحضارية، فإنّها تحدث استقلالية في العملية التنموية. ومعنى ذلك أنّ إعطاء الأولوية للتعليم في العملية التنموية والاهتمام بذلك يكوِّن أجيالاً من المسلمين قادرين على تخليص التنمية من التبعـــية، ويصنعوا تنمية لها استقلالها الذاتي ونابعة من الإسلام ومنسجمة

---

(١) إنّ اســـتخدام مثل هذا التعبير لا يليق بالإنسان إذ يجعله مساوياً للموارد الأخرى التي يقوم هو بتنميتها، والأفضل أنْ يستخـــدم عوضـــاً عن ذلك تعبير «تنمـــية القـــدرات أو الطاقـــات البشرية» لأنها هي العنصر الكامن في الإنسان، والذي يراد تنميته حتى يكـــون له مســـاهمة فـــي العملية التنموية، وليس تنمية الموارد البشرية المقابل لتنمية الثروة الحيوانية وغيرها.

(٢) القصيفي، جورج: «التنمية البشرية: مراجعة نقدية للمفهوم والمضمون». وهو مقال ضمن ندوة: التنمية البشرية في الوطن العربي، مرجع سابق، ص ٨٣.

مـــع تعاليمه وموفرة متطلبات وحاجيات العالم الإسلامي. ولا شكّ أنّ مـــثل هذا الأمر لا يتحقق إلا بجعل التعليم نقطة البدء في العملية التنموية حـــتى يتهيأ للعالم الإســـلامي رجاله ونساؤه الذين يصنعون التنمية صنعاً ولا يســـتوردونها استيراداً. ولذا، فإنّ التنمية لا تكون تنمية حقيقية إلا إذا كانت بعيدة عن التبعية، وهذه الصفة المذمومة للتنمية لا تزول إلا بالاعتماد على الذات، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال التعليم. فضلاً عن ذلك، فإنّ واقـــع العـــالم الإسلامي وما اتصف به من تنمية تبعية سببها عدم وجود أناس ذوي كفاءات ومهارات وقدرات للقيام بتنمية مستقلة. والسبب في ذلـــك راجع إلى أنّ التعليم في العالم الإسلامي لم يعط الأولوية في العملية التنموية، و لم يلق حظه من العناية والاهتمام كما ينبغي.

٣- اهتمام الإسلام بالتنمية التعليمية:

ليس غريباً أنْ يهتم الإسلام بالتنمية التعليمية، بل الغرابة كلّ الغرابة أن لا يهـــتم بهـــا، فإذا كان الإنسان محور التنمية وهدفها الأساس، وأنّ التعليم يمثل نقطة الانطلاق السليمة لذلك، فمن المعلوم -كما تقدم- أنّ التعليم كان محوراً أساساً للإسلام، لذلك أولاه الرسول ﷺ مكاناً عظيماً ورفعه الصحابة ﷺ مكاناً علياً، وكذلك أمر التعليم في الأجيال الإسلاميّة التي كان يخلف بعضها بعضاً في نشر العلم وتعليمه، فحققوا بذلك نهضة حضارية وتنمية مستقلة اعتمدوا فيها على قدراتهم وكفاءاتهم الخاصة.

ويظهر اهتمام الإسلام بالتنمية التعليمية في النقاط الآتية:

أ – **مكانة العلم في الإسلام**: إنّ الحضارة الإسلاميّة التي بلغت ذروة المجد في العصر العباسي، لم تنشأ من فراغ و لم تشيّد من عبث، بل كان وراء ذلك كلّه عدّة أسباب، أهمها على الإطلاق نشاط الحركة العلمية والتعليمية وانتشارها في العالم الإسلامي آنذاك نتيجة لما أولاه الإسلام من عناية بالعلم لا تجد لها نظيراً، حتى بلغ مبلغاً عظيماً. ولذا، فليس بغريب أنّ يقترن تحضر الأمة الإسلاميّة ورقيّها وازدهارها بالعلم، وما تركته من تراث خير شاهد على مدى مبلغها من العلم وما نتج عنه من تحضر ورقي. وبناء على ذلك، فمن الطبيعي أنّ يقترن تخلفها وتراجعها الحضاري بإهمال العلم والتعليم وعدم إعطائه الأولوية من أجل الخروج من هذا المأزق الحضاري.

ذكر الإمام عبد القاهر الجرجاني الفائدة من تقديم شيء على آخر في الخطاب العربي بقوله: «واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام، قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول:كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى»[1]. فإذا كان العربي له حكمة في تقديم شيء على آخر في الخطاب وهي

---

(١) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمد عبده ومحمد محمود الشنقيطي، ط٢ (بيروت: دار المعرفة ، ١٩٩٧م) ص٨٦.

العناية والاهتمام، فإنّ لله ﷻ الحكمة البالغة حين قدّم العلم في نزول الوحي على سائر الأمور كلّها، إذ إنّ أول الآيات نزولاً قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (٣) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (العلق:١–٥). فهذه الآيات نزلت على الرسول ﷺ وهو متحنّث في غار حراء، تأمره بالقراءة وتبيّن له أنّ الله هو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، فكان أول عهده بالوحي مع هذه الآيات التي حددت نوعية القراءة باسم الله، وتكرر ذلك في الموضعين اللذين أمرا فيهما بالقراءة وهما:

- ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.
- ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾.

إذن، فلم يكن تقديم العلم للعناية والاهتمام به فحسب، بل أيضاً لما له من مكانة عظيمة لا تدانيها أي مكانة في الإصلاح والتغيير، إذ إنّ رسالة الرسول ﷺ الإصلاحية كانت انطلاقتها أمراً بالقراءة وحثّاً على العلم والتعلم، ولذا فمن رام إصلاحاً وتغييراً فليتخذ من العلم والتعليم بداية الانطلاقة نحو الإصلاح. فضلاً عن ذلك، فإنّ الله ﷻ خلق الخلق وهو عليم وخبير بما يصلحهم، وأرسل رسوله ﷺ رحمة للعالمين، وجعل مدخل ذلك العلم بوصفه الانطلاقة السليمة والبداية الضرورية للتغيير والإصلاح، وعلى قدر نشر العلم يكون الإصلاح، ولذلك ليس بمستغرب

أنْ نعـدّ العـلم مقياساً للتنمية الإسلاميّة، ومؤشراً على الإصلاح، وعلامة على النهوض الحضاري، وهذا ما جعل للعلم مكاناً علياً في الرسالة الخاتمة.

ونظراً لما للعلم من مكانة عظيمة في إصلاح الشعوب وترقيتها، فإنّ الإسـلام حـثّ المسلمين على الزيادة من العلم وتنميته، كلاً على قدر اسـتطاعته، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، إذ أمر بأنْ يدعو الله أنْ يزيده من العلم في قوله تعالى: ﴿ ...وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه:١١٤). وهـذه التنمية العلمية التي دعا لها الإسلام لا تتوقف عند حدٍّ لا تجاوزه، ولا يستطيع أحد أنْ يدعي أنّ تنميته العلمية قد بلغت حدًّا لا مزيد عليه، ومـن ادعى ذلك فهو جاهل بطبيعة العلم كما قال الله تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (يوسـف:٧٦)، ومعنى ذلك أنّ طلب العلم وتنميته تستغرق حياة المتعلم كلّها، لاعتقاده أنه مهما بلغ من العلم فهناك من هو أعلم منه، وليس هناك تعبير يـحُثّ المسلمين على التنمية العلمية أبلـغ من الآية السّابقة، والتي قبلها، أعني بذلك قوله تعالى: ﴿ ...وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه:١١٤).

يضـاف إلى ذلك، أنّ العلم مقياس يعتمد لاختيار الأصلح فالأصلح في مخـتلف المجالات، وذلك بناء على اصطفاء الله ﷻ طالوت ملكاً على قومـه نظراً لما له من بسطة في العلم والجسم، رغم أنّ مقياس القوم كان مادياً إذ كانوا يرجون أنْ يتملكهم رجل ذو سعة من المال، ولكن قدمت

الزيادة في العلم على الزيادة في المال، كما بيّن الله ﷻ ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٤٧). فذكر قصة طالوت مع قومه عبرة لنا، وهو مغزى القصص القرآني كلّه كما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف:١١١). والعبرة من هذه القصة أنّ الزيادة في العلم تعد خير مقياس لاختيار الناس وتحميلهم المسؤوليات، وفي ذلك دلالة على مكانة العلم وأهميته في التعاليم الإسلاميّة.

ثم إنّ أحاديث الرسول ﷺ الواردة في شأن العلم إنما هي تأكيد لما جاء في القرآن الكريم وتعضيد لعظمة مكانة العلم في الإسلام. ومن ذلك قول الرسول ﷺ: « **طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[1]، فنص الحديث يدّل على أنّ طلب العلم فرض على كلّ مسلم، وهذا الفرض منه ما يطالب به كلّ مسلم على حدة فيكون فرض عين، مثل العلم بكيفية الصلاة وكيفية أدائها على الوجه الشرعي. ومن العلم

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب العلم، ورقمه ٢٢٠، والحديث قد صححه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ورقمه ٥٥٠.

مـــا يكون طلبه من المسلمين عامة غير معيّن الأفراد، فيكن في هذه الحال فـــرض كفاية، ولاسيما إذا كان في أمور الدين فيطالب به من كانت له قدرة على ذلك وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:١٢٢).

ثم إنّ الحديث السابق وما فيه من أحكام يشمل الرجال والنساء معاً كمـــا هـــو معلوم من تركيبة الخطاب العربي المبين، ولاسيما أنّ شرعنا الحنيف يؤكد على أنّ « **النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ** »[(١)] كما ورد في الحديث الشـــريف، بـــل إنّ الرســـول ﷺ قد خصّ النســـاء بالتعليم نزولاً عند رغبتهنّ في ذلك، فعَنْ أَبِي سَعِيد جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَتْ: «يَـــا رَسُولَ اللَّه ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيه تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ: **اجْتَمِعْنَ فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا فِي مَكَانِ كَذَا وَكَـــذَا**، فَاجْـــتَمَعْنَ فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللَّه ﷺ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ...» [(٢)].
وعـــلى الجملة، فللعلم مكانة عظيمة، حيث بلغ الاهتمام به مبلغاً عظيماً

---

(١) جـــزء مـــن حديث، يمكن مراجعته في سنن الترمذي، كتاب الطهارة، ورقمه ١٠٥، وسنن أبي داود، كتاب الطهارة، ورقمه ٢٠٤، وغيرهما.

(٢) أخـــرجه الـــبخاري، كـــتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب تعليم النبي ﷺ أمته من الرجال والنساء مما علمه الله ليس برأي ولا تمثيل. انظر: ابن حجر: فتح الباري، مرجع ســـابق، ٥٦/٢٨-٥٧، الحديث رقم: ٧٣١٠. وتمام الحديث: «... ثُمَّ قَالَ: **مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْـــهَا مِنْ وَلَـــدِهَا ثَـــلَاثَةً إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ**، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوِ اثْنَيْنِ، قَالَ: فَأَعَادَتْهَا مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ».

حتى وقع تقديمه في نزول الوحي على سائر الأمور، وتزداد هذه المكانة رفعة بجعله فريضة على كلّ مسلم.

ب – مكانة التعليم في الإسلام: فإذا كان للعلم مكانة عليّة في تعاليم الإسلام، فلابد أنْ يكون للتعليم أيضاً المكانة نفسها، إذ لا يمكن الفصل بين العلم والتعليم؛ فالعلم لا يُكتسب إلا بالتعلم والتعليم، والتعليم ينعدم إذا لم يكن هناك علم، إذ العلم ما يكتسبه الفرد عن طريق التعلم، والتعليم نقل ما اكتسبه من العلم للآخرين. ولعلّ أفضل ما يوضح لنا مكانة التعليم أنه غاية الإسلام، فلا استمرار للإسلام وتعاليمه إلا بالتعليم والتعلم جيلاً عن جيل، فضلاً عن أنّ بيان مواضعه عند المسلمين خير شاهد على مكانة التعليم في الإسلام.

بالإضافة إلى ذلك، فإنّ الله ﷻ ختم الرسل بمحمد ﷺ وجعله رحمة للعالمين ومنة منّ بها سبحانه على المؤمنين، وتتمثل هذه المنة في التزكية وتعليم الكتاب والحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران:١٦٤)، فضلاً عن تعليمهم ما لا يعلمون كما ورد في قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٥١). وفي موضع

ثالث ذكر الله منة التعليم على العرب وذلك بإرسال الرسول إليهم مقابل ما كانوا عليه من أمية، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة:٢). ففي هذه الآية الكريمة ذم للأمية ومدح للعلم والتعليم؛ حيث ذكر حالهم قبل بعثة الرسول ﷺ وهي الأمية، ثم كانت بعثة الرسول ﷺ لإزالة هذا الوصف المذموم بتعليمهم الكتاب والحكمة، ولاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ أول الآيات نزولاً تأمر بالتعلم، وذلك عن طريق الأمر بتعلم القراءة والكتابة، فهي إذن تتضمن معنى ذم الأمية ومدح التعلم، وأنّ هذه الصفة المذمومة لا تزول إلا بالتعلم.

ولقد أكد الرسول ﷺ هذه الحقيقة القرآنية ببيان الغاية من بعثته بقوله: **«إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلا مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا»**[1]، فحصر الرسول ﷺ بعثته في التعليم ووصفها بالتيسير، وذلك خلقه في أموره كلّها. ولذا، فإنّ حياة الرسول ﷺ استنفدها كلّها في تعليم المؤمنين أمور دينهم، فلا تمر عليه ساعة من ليل أو نهار إلا ويغتنمها في تعليم أصحابه أي أمر من أمور دينهم وما فيه صلاح لهم في الدنيا والآخرة، ولذلك كانت عملية التعليم في سيرة الرسول ﷺ متصفة بالديمومة والاستمرارية، وهذا الأمر وحده كاف للدلالة على أنّ التعليم غاية الرسالة الخاتمة، ولاسيما إذا أخذنا

---

(١) أخرجه مسلم.

بعين الاعتبار أنّ استمرار عملية التعليم في الأمة الإسلاميّة إنما هي استمرارية للإســـلام نفسه، لذلك كان الرسول ﷺ يبعث أصحابه لمن لم يحضره من المسلمين لتعليمهم أمور دينهم، وكان يوصي رؤساء القبائل والوفود بأنْ يعلّموا أقوامهم إذا رجعوا إليهم، كما ورد في قول الرسول ﷺ: «ارْجِعُوا فَكُونُـــوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ، وَصَلُّوا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»[1].

فمجمل القول: إنّ للتعليم مكانة عظيمة سببها أنه يمثل أسّ الرسالة الخاتمـــة والغاية من بعثة الرسول ﷺ، وأنّ في ذلك منّـــة عظيمة من الله ســـبحانه عـــلى المؤمنين. ونظراً لما تبوأه التعليم من مكانة وسموّ رتبة في الرســـــالة الخاتمة جعل المسلمـــين يهتمون بأمر التعليم والمحافظة عليه، وذلك بجعله عملية مستمرة من جيل إلى آخر عبر التاريخ الإسلامي. هذا، ولا شكّ أنّ التاريخ الإسلامي قد شهد تقدماً علمياً ورقياً وازدهاراً نتيجة لتعالـــيم هذا الدين التي تحثّ على العلم والتعليم وتحرّض عليهما، وترقى بهمـــا إلى مرتبة الفرض التي لا تعلوها أيّ مرتبة أخرى أو تدانيها. ولذا، فأبعد في الاستحالة أنْ تكون تعاليم الدين الإسلامي هي التي ساهمت في تخلف التعليم لدى المسلمين مما أدى إلى تخلفهم، بل التاريخ يشهد بخلاف

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الآذان، ورقمه ٥٩٥، والدارمي في سننه، كتاب الصلاة، ورقمه ١٢٢٥.

ذلـــك. والحاصـــل أنّ الحضـــارة الإسلاميّة كانت نتيجة نشاط الحركة التعليمـــية وازدهارها في العالم الإسلامي. وإذا أخذنا بمفهوم المخالفة في هـــذه المسألة، فنقول: إنّ التراجع الحضاري الذي يعيشه العالم الإسلامي اليوم إنما سببه الرئيس تراجع الحركة التعليمية وتخلّفها، أو قل، إن شئت: إنّ التعليم في العالم الإسلامي يمرّ بأزمة معضلة.

وبـــناء عـــلى ذلك، فإنّ حاضر العالم الإسلامي يعيش أزمة تعليمية بلغـــت مـــبلغاً قصياً، بحيث أصبحت داء متمكناً مستعصياً، من الصعوبة بمكـــان علاجهـــا والخروج منها، نظراً لحدّمّا واستفحالها في المجتمعات الإســـلامية. ناهيك عن أنّ الأزمة التعليمية تفوق في حدّمّا أيّ لون آخر مـــن ألوان الأزمات، بوصفها الأزمة الأم في العالم الإسلامي، وإنْ كان عـــدم الاهـــتمام هـــا يُشعر كأنها أقلّ خطراً وأخفّ ضرراً من الأزمات الأخرى، ولا سيما الأزمة الاقتصـــادية. والســـبب في ذلك راجـــع إلى مـــا أومأنـــا إلـــيه من قبل من أنّ التنمية في العالم الإسلامي تكاد تكون محصورة في الجانب الاقتصادي دون غيره من الجوانب الأخرى، وقد بيّنت أنّ هـــذا المـــنظور للتنمية هو سبب فشلها. ومن ثَم، فليس غريباً أنْ تعدّ الأزمة التعليمية جرثومة[1] التراجع الحضاري للأمة الإسلاميّة، وأن تنمية التعليم سبيل الخلاص من هذا التراجع الحضاري.

---

(١) الجرثومة في اللغة العربية تطلق ويراد بها الأصل، فأصل كلّ شيء يسمى جرثومة، ولذا فإنّ جرثومة (أصل) التراجع الحضاري راجع إلى الأزمة التعليمية.

تنمية التعليم
بوصفه سبيلاً للخلاص من التراجع الحضاري

إنّ تاريخ العلم والتعليم لدى المسلمين خير شاهد على ما بلغته هذه الحضـــارة من رقي وازدهار في هذين المجالين. لكن حاضر المسلمين يبدو وكأنـــه لا علاقة له بذلك الماضي التليد، إذ كان من المفروض أنّ النهضة العلمــية الحديثة وما حققته من تطور هائل في مجالات متعددة تكون في حـــوزة العالم الإسلامي ومن إنتاجه، ولا تكون في حوزة العالـــم الغربي ولا مـــن إنتاجه، إذ إنه كان يعيش حياة بعيدة كل البعد عن العلم قبيل نهضـــته الحديثة. إذن، فمسألة نشوء العلم الحديث وما أحدثه من تطور هائل في عالم غير العالم الإسلامي- الذي كان مؤهلاً من الناحية العلمية أكـــثر مـــن العالم الغربي، حيث إنّ حظه من العلم كان أوفر- فهو أمر غريب جعل بعض الكتّاب يرومون الإجابة عن هذه المسألة.

وهـــذا أمـــر دعا «توبي هاف» لتأليف كتابه «فجر العلم الحديث» لتفســـير ســـبب نشـــوء العلم الحديث في الغرب دون حضارتي الإسلام والصـــين، رغـــم أنهما كانتا في العصر الوسيط أكثر تقدماً وتطوراً من الناحـــية العلمـــية[1]. ولكنّ صاحب هذا الكتاب أبدى بغضه المكشوف

---

(١) راجـــع: هـــاف، توبـــي: فجر العلم الحديث: الإسلام، الصين، الغرب، ترجمة أحمد محمود صبحي (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٧م) .

وحقـــده الدفـــين تجاه الإسلام، إذ جعل من تعاليمه سبباً رئيساً في عدم نشـــوء العلم الحديث في العالم الإسلامي[1]. وهذا أمر يخالفه فيه كلّ من الـــتزم بالعدل المعرفي[2] مع الموافق والمخالف من علماء الغرب أنفسهم. فـــنجد مثلاً أنّ «بيرك» في كتابه القيّم «عندما يتغيّر العالم» يعزو التقدم العلمي إلى تعاليم الدين نفسه فيقول: «...والأهم من هذا كلّه أنّ الدين والـــثقافة تعايشا معاً في تواؤم، فحيثما وجد الإسلام، وجد معه التعطش إلى المعرفة وتطبيقاتها على شتى مناحي الحياة»[3]. وأما في عصرنا الحاضر، فإنّ العالم الإسلامي يعيش أزمة تعليمية وتراجعاً حضارياً، وهو أمر جعلنا نهـــتم بالحديـــث عن تنمية التعليم باعتباره سبيلاً للخلاص من التراجع الحضاري، وفي المطالب الآتية بيان لذلك.

---

(١) إن مترجم الكتاب الدكتور أحمد محمود صبحي قد كان بالمرصاد لتخرصـّات صاحب كـــتاب فجر العلم الحديث، حيث قام بتفنيدها الواحدة تلو الأخرى، فضلاً عما تقدم من كلام في هذه الدّراسة يدحض ما ادعاه دحضاً.

(٢) المقصـــود بالعدل المعرفي أنْ يتصف أهل كلّ علم ومعرفة بالإنصاف والموضوعية في أحكامهم على الآخرين، ولو كان ذلك مع المخالفين حتى في الملّة والاعتقاد لقوله تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:٨)، فالعدل المذكور في هذه الآية قد ورد مطلقاً فيبقى على هذه الحال ليشمل أنواع العدل كلّها، ولا شكّ أنّ العدل المعرفي أحدها.

(٣) بـــيرك، جـــيمس: عـــندما يتغيّر العالم، ترجمة ليلى الجبالي ومراجعة شوقي جلال (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٤م) ص ٥٠-٥١.

١- نشر الروح العلميّة:

إنّ عملية التنمية التعليمية تحتاج أول ما تحتاج إلى نشر الروح العلميّة الباعثة على النموّ والتطور، ولكن قد يكون بعض أو كثير من أفراد العالم الإســـلامي من ذوي العلم ممن يحبون التعلم ويرغبون في تعليم الآخرين، إلا أنّ هذه الوضعيّة لا تحدث نهضة علمية، ومن باب أولى لا تحقق شهوداً حضارياً للأمة الإسلاميّة. والسبب في ذلك راجع إلى كونها تنمية ينقصها الشمول، ومن خلال ما تقدم من كلام في التنمية تقرر أنّ العملية التنمويّة لا تحقـــق أهدافها ولا تصل إلى غاياتها إلا إذا كانت شاملة لأفراد العالم الإســـلامي جميعاً، ولاسيما التنمية العلمية والتعليميّة، والتي عليها يتوقف نجاح تنمية العالم الإسلامي أو فشله. ونظراً لأهميّة التنمية العلميّة الشاملة، فـــإنّ المؤسســـات التعليميّة، بما فيها مراكز الدّراسات والبحث العلمي، خليقة بأنْ تقوم بهذا الدور المهم في إحداث تنمية علميّة شاملة، بحيث إذا تضافرت جهود مختلف المؤسسات التعليميّة على إنشاء مراكز للدِّراسات والـــبحوث، وقامـــت هذه بدورها كما ينبغي، فلا شكّ أنّ عملاً كهذا سيساهم في نشر الروح العلميّة بين أبناء العالم الإسلامي قاطبة.

ولـــيس المقصود بنشر الروح العلميّة هنا أنْ يكون كلّ فرد في العالم الإســـلامي منتمياً إلى طبقة العلماء، فذلك تكليف بما لا يطاق؛ إذ الناس يختلفون في ميولاتهم، ويتباينون في طاقاتهم، ويتفاوتون في قدراتهم، ولذلك

لا يمكن مع هذا الاختلاف والتباين والتفاوت الذي فطروا عليه أنْ نغيِّر ذلك ليكونوا رجلاً واحداً عالماً. ولكن المقصود بذلك أنْ تسعى هذه المؤسسات وتبذل جهداً لتجعل الروح العلميّة سارية في كلّ فرد من أفراد العالم الإسلامي، مما يشكل مجتمعات إسلاميّة تحب العلم وتحبّ العلماء، وتساعد على نشر التعليم، وإنْ لم يكن ذلك الفرد بعينه مشتغلاً بالعلم والتعليم، ولكن تسري فيه الروح العلميّة التي تشيع بين أفراد الأمة الإسلاميّة وتنتشر بين فئات مجتمعاته المتنوِّعة.

وتوضيحاً لذلك أقول: إنّ الروح العلميّة لا تنتشر في مجتمع ما إلا إذا سرت في ثقافته وتناقلتها أجياله، جيلاً عن جيل، وذلك لما للثقافة من سيطرة على السّلوك الفردي والاجتماعي في أمة من الأمم. فالثقافة، كما عرّفها الأستاذ مالك بن نبي، رحمه الله، هي «العلاقة التي تحدد السّلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع»[1]، وبعبارة أخرى فإنّ «الثقافة هي أسلوب حياة، الأسلوب المشترك لمجتمع بأكمله من علمائه إلى فلاحيه»[2]. ومن ثَم، فالثقافة بهذا المعنى مظهر اجتماعي

---

(١) ابن نبي، مالك: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين ، ط٤ (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤) ص ٥٧. إنّ لمصطلح الثقافة تعريفات كثيرة لدى العلماء والمفكرين لا تكاد تحصر، ولكنّي اخترت هذا التعريف لأنه يعبِّر عن حقيقة الثقافة وماهيتها تعبيراً دقيقاً ومختصراً، ويتماشى مع ما نحن بصدد بيانه.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٨.

عــام، بحيث يشترك فيه أفراد المجتمع جميعاً، فإذا قلنا ثقافة مجتمع ما كذا وكذا، فيعني أنّ أفراده يشتركون في ذلك الأمر. وعليه، فيمكن القول: إنّ الثقافة هي التي تعبّر عن مستوى مجتمع ما أو أمة ما، أو هي المقياس الذي تقاس به الشعوب والمجتمعات والأمم، من حيث البدائيّة والتحضر، فيقال هذا مجتمع بدائي وذاك مجتمع متحضّر، اعتماداً على ثقافته.

ونخلص من خلال ما سبق ذكره إلى أنّ الثقافة أهم مظهر اجتماعي يــتحكم في مصير المجتمعات الإنسانيّة. ولذا، فليس بمستغرب أنْ تكون الثقافة هي المسؤولة عن تخلف المجتمع وتقدمه، إذ إنّها هي التي تتحكم في تصرّفات الناس وتوجيههم سلوكياً وفكرياً داخل مجتمع معيّن. والملاحظ أنّ أهمــيّة الثقافة في حياة المجتمعات والأمم وتأثيرها «تتجلى في صورتين: فهـــي إمـــا أنْ تؤثّر بوصفها عوامل نهوض بالحياة الاجتماعيّة، وإما على عكس ذلك بوصفها عوامـــل ممرضـــة، تجعل النمـــو الاجتماعي عسيراً أو مستحيلاً»[1]، بحسب قوّة الأزمة الثقافيّة وحدّتها.

ومهما يكن من شيء، فإنّ التنمية التعليميّة المنبثقة عن انتشار الروح العلمـــيّة لا تحـــدث في فراغ، ولا تنشأ من لا شيء، بل لابد من عوامل مســـاعدة على ذلك، ولعلّ من أهمها، أو قل أهمها، الثقافة المهيمنة على سلوك أفراد المجتمع وتصرفاتهم. وبعبارة أخرى، إذا سرت الروح العلميّة

(١) المرجع السابق، ص ١٤.

في ثقافة أبناء العالم الإسلامي كلّهم فقد زالت العقبات وأميطت العوائق أمـــام نشر العلم والعناية بالتعليم، بل تجد تشجيعاً جماعياً من الناس كافة، ومســـاعدة من أفراد الأمة على اختلاف منازلهم وتباين طموحاتهم. وبناء عـــلى ذلـــك، فإنّ التوعيّة العلميّة والتشويق إلى التعلم وإنشاء المكتبات العمومـــيّة، مـــن أهم الأمور التي تيسِّر نشر الروح العلميّة بين أبناء الأمة الإسلاميّة، وسأفرد كل عنصر بكلمة مختصرة ووجيزة.

أ – **التوعـــــيّة العلمـــيّة:** تقرر آنفاً أنّ الثقافة هي التي تتحكم في تصرفات الناس وسلوكهم في مجتمع ما. وهذا التصرف والسلوك يتحكم عـــادة في أفـــراد المجتمع كلّهم على اختلاف طبقاتهم وتنوع مستوياتهم. ولذا، فإنّ على المؤسسات التعليميّة متمثلة في مراكز الدِّراسات والبحوث أنْ تســـعى بكلّ قواها لنشر الوعي العلمي في ثقافة العالم الإسلامي، فإذا أصبحت ثقافة المجتمعات الإسلاميّة تتضمن وعياً جَمْعِـــيّاً بالعلم وأهميته في التنمـــية والـــنهوض الحضاري، ستظهر آثار هذا الوعي الجمْعي على المســـيرة العلميّة للأمة الإسلاميّة. ثم إنّ تكثيف الجهود وتضافرها، فضلاً عـــن اســـتمراريتها وتأكيدها التوعية العلميّة بفضل ما تبذله مؤسسات البحث العلمي ومراكز الدِّراسات من جهد في سبيل تحقيق ذلك، فيصبح هذا الوعي العلمي جزءاً من ثقافة المجتمعات الإسلاميّة، بحيث يجعل الأفراد يتصـــرفون تلقائـــياً فيه، تعبيراً عن وعيهم وإدراكهم لأهميّة العلم وقيمة

التعليم في نهضة العالم الإسلامي وتحضره، إذ «إنّ من أكبر العار على المسلمين أنْ يظلوا على حالهم تلك من الأميّة والتخلف، ودينهم أعظم حافز على التعلم والتقدم، وهو يهيئ لهم من الأسباب المادية والاجتماعيّة، ومن المناخ العقلي والنفسي ما يخرجهم من الجهل إلى العلم ومن البداوة إلى الحضارة، ومن الظلمات إلى النور»[1].

فضلاً عن ذلك، فإنّ مؤسسات البحوث ومراكز الدِّراسات في العالم الإسلامي يكون لها أثر كبير ودور مهم في التوعية العلميّة ونشرها بين المسلمين إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ المؤسسات التعليميّة تركز على النظام التعليمي فحسب، وقد بينا سلفاً أنّ هذا التركيز الأحادي الجانب يعدّ أحد مواطن الخلل الخطيرة على التعليم في العالم الإسلامي، إذ إنّ الاقتصار على التعليم النظامي بحيث يكون التعليم مقصوراً على ما يلقى داخل حجرات الدرس، فذلك أمر يؤدي إلى إهمال من هم خارج قاعة الدرس والذين يمثّلون الأكثرية في المجتمعات الإسلاميّة، وهذا ينذر بخطر يكون قريب الوقوع أو يوشك أنْ يقع.

ومن ثَم تكون مؤسسات البحث العلمي ومراكز الدِّراسات متممة لهذا النقص، ومصلحة لهذا الخلل، بحيث تعتني بأبناء العالم الإسلامي الذين

---

(١) القرضاوي، يوسف: من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا (بيروت: مؤسسة الرسالة،٢٠٠١م) ص٢١٧.

تخـــرجوا من حجرات الدرس فتشجعهم على مواصلة البحث والدِّراسة، وتبصرهم بأنّ العلم والتعليم لا يتوقف عند حجرات الدرس، بل إنّ بدايته الحقيقية بعد التخرج حيث يصبح الطالب وجهاً لوجه مع البحث العلمي بعـــد أنْ توفر على أدواته، والاعتماد على الذات لتحصيل مزيد من العلم وتنمية معلوماته. وهـــذه التوعية وهذا التوجيه والتأكيد على ذلك، حتى لا يفقد خريجو الجامعات في العالم الإسلامي تلك الروح العلميّة التي ينبغي أنْ يتصف بها المتعلّم المسلم ويتحلى بها طيلة حياته. ولعلّ خلو مؤسسات البحـــث العلمي ومراكز الدِّراسات من مثل هذه التوعية العلميّة والتوجيه الـــروحي يفسِّـــر لنا فقدان الروح العلميّة والوعي بأهمية العلم وطبيعته وخصائصه في المنظور الإسلامي لدى كثير من خريجي الجامعات في العالم الإسلامي، بحيث إذا تخرج الطالب تنقطع صلته بالتعلم وطلب المزيد من العـــلم في تخصصـــه، بسبب ما اسكتن في الوعي الجمْعي للمتعلمين أنّ مســـيرة التعلـــيم وتحصيل العلم أجلها عند إنجاز الرسالة أو الأطروحة، وبعدها لا تسمع للبحث ذكراً، ولا للعلم حسيساً، ولا للتعليم همساً بين خريجي الجامعات.

ومن ثّم، فإنّ من أهم الأمور التي تستحق أنْ يبذل فيها جهد وتُسخر لهـــا طاقات المؤسسات التعليميّة ومراكز البحوث والدِّراسات، أنْ تعمل عملاً دؤوباً على تغيير هذا الوعي الجمعي المتردي لدى كثير من المتعلمين

إلى توعية علمية تحفظ للتعلم قدره، ومدركة لطبيعة العلم وخصائصه، التي من أهمها التنمية التعليميّة المستمرة التي تستغرق حياة الفرد المتعلّم من الولادة حتى الوفاة. فإذا انتشرت هذه التوعية التعليميّة لدى المتعلمين، فضلاً عن نشر الروح العلميّة في ثقافة المجتمعات الإسلاميّة بفضل التعاون التكاملي بين المؤسسات التعليميّة ومراكز البحوث والدِّراسات في العالم الإسلامي، فسينتج عن ذلك كلّه تكوين مجتمع متعلم، وبه يمكن تحقيق النهضة الحضارية المنشودة.

ب - **التشويق إلى التعلم**: لاشك أنّ النفس الإنسانيّة تنشرح بعمل إذا اقترن بثواب، سواء أكان مادياً أو معنوياً، وتحجم عن عمل لا ترجو منه ثواباً حتى لو أجبرت على ذلك إجباراً. وعليه، فقد يُجبر الناس على التعلم، ويكون عليهم لِزاماً، ولكن ليس في الإمكان أنْ يجبروا على حبِّ التعلم، بحيث يشعرون بشوق يغمر أنفسهم إلى التعلم ورغبة تدفعهم صوب العلم دفعاً. وهذا التشويق، وهو المعبّر عنه في الأدبيات الإسلاميّة بالترغيب، هو أسلوب قد استخدمته الشريعة الإسلاميّة في أمور العبادات، حتى في أشدّها تجرداً لله ﷻ وأعني بذلك الجهاد في سبيل الله[1]، حيث

(١) أقصد بذلك ما ورد في قول الرسول ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ». أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الخمس، ورقمه ٢٩٠٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، ورقمه ٣٢٩٥، وقد روى عن سفيان الثوري قوله: «النفل أنْ يقول الإمام من أصاب شيئاً فهو له، ومن قتل قتيلاً فله سلبه»، فتأمل!!.

يلاحظ أنّ التكليف وما يترب عليه من أعمال صالحة قد اقترن به ترغيب وتشويق للمكلّف بما ادخره الله له من نعيم معنوي ومادي[1]. فإذا قمنا بنقل هذا المعنى إلى مجال التعليم فنجد أنّ «الثواب ما زال من أكبر العوامل على التعلّم، ويقصد به كل ما يعمل على تحقيق الرغبات وبلوغ الأماني، فإذا أثيب المتعلم بذل في سبيل العلم جهداً كبيراً، غير مبالٍ بما يعترضه من مصاعب ومشاق»[2]، وذلك لتوفر دواعي ومرغبات في التعليم.

فإذا ثبت أنّ استخدام أسلوب الترغيب في التعليم يعدّ من أكبر الدوافع وأهمها على التعلم، فيكون حينها للمؤسسات التعليميّة وسياستها تجاه المتعلّمين ومؤسسات البحث العلمي ومراكز الدِّراسات أثر كبير ودور فعّال في إحداث مثل هذا الأمر المهمّ. وليس التشويق للتعلّم محصوراً في الأمور الماديّة فحسب كما يظنّ الكثير، بل هو أمر أعم من ذلك

---

(١) قد اقتصرت كلامي على الترغيب أو التشويق إلى التعلم دون الترهيب أو العقاب لأنّ الأسلوب الأول قد حقق نجاحاً باهراً، ولذلك عقد ابن خلدون فصلاً في مقدمته للحديث عن «أنّ الشدة على المتعلمين مضرة بهم»، فضلاً عن أنّ الملاحظ في الشريعة الإسلاميّة وما بني على تعاليمها من أساليب التربية والتعليم أنّ أسلوب الترغيب مقدم على أسلوب الترهيب، وعليه فيكون الترغيب أصل في التربية والتعليم، والترهيب استثناءً فيهما. ثم إنّ الدّراسات الحديثة في ميدان التربية وعلم النفس أثبتت أهميّة التشويق في التعليم، وبالمقابل تبيّن لهم أنّ العقاب لا يحمل المعاقَب (بفتح القاف) على التعلم، بل يحمله على كرهه والوحشة من أهله.

(٢) شهلا، جورج، وآخرون: الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربيّة، ط٥ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٢م) ص ١١٧.

وأوســع، إذ يعدّ ذاك جزءاً من عملية التشويق لا يُعوَّل عليه كثيراً، لأنّ التشويق المادي إنما هو تشويق خارجي لعدم صدوره من طبيعة المتعلّم ذاته ولا مــن قرارة نفسه، ومن ثَم فهو معَرّض للزوال بزواله. ناهيك عن أنّ التشــويق المادي إذا زاد عن حدّه انقلب من كونه وسيلة لترغيب المتعلّم إلى غاية يسعى إليها، وفي ذلك آذان بخراب التعليم وفساده فساداً كبيراً. يضاف إلى ذلك أنّ التشويق المادي إذا أصبح غاية للمتعلم أفقد التعليم قيمته، بحيث تصبح جهوده ونشاطه التعليمي من أجل الحصول على الثواب المادي. وبناء عــلى ذلك، فإنّ المؤسسات التعليميّة ومراكز البحوث والدِّراسات لابد أنْ تراعي هذا الأمر أثناء استخدام الترغيب المادي للمتعلمين.

وزيــادة على ذلك، فإنّ هناك نوعاً آخر من التشويق يمكن أنْ نطلق عليه التشويق الداخلي مقابل التشويق الخارجي، أو التشويق المعنوي مقابل التشويق المادي، والمتمثّل في الترغيب النفسي للمتعلم. والمقصود بالتشويق الداخلي إلى التعلم ما يكون نابعاً من ذات المتعلّم وصادراً عن رغبة نفسيّة داخلــية للتعــلم. ويتم تحقيق هذا النوع من التشويق من خلال التوعية الذاتــية للمــتعلّم بأهمــيّة التعــلم وعظيم منفعته على مستوى الأفراد والجماعات، كما سلف بيان ذلك أثناء الحديث عن التوعية العلميّة. فإذا تــأكد لــنا أهمــية التشويق وأثره في نفسيّة المتعلّم فيكون من واجبات المؤسسات التعليميّة أنْ تقوم بهذا العمل المؤثّر في التعليم. ولعلّ بثّ الروح

الأخلاقيّة لدى المتعلمين وما يجب أنْ يتحلى به المتعلّم المسلم من صفات تكـون خـير باعـث له على التعلّم، من الأمور التي تساعد المؤسسات التعليميّة على نشر الروح العلميّة بين أبناء الأمة الإسلاميّة. وعلى الجملة، فـإنّ أمـام المؤسسـات التعليميّة ومراكز البحوث والدِّراسات نوعين متلازمين من التشويق، أحدهما مادي (خارجي) والآخر معنوي (داخلي) تلازمـاً بحيـث لا يتصور انفكاكهما، وإنْ كان أحدهما أكبر نفعاً من الآخـر. والحاصل أنّ الترغيب في العلم والتعلّم عن طريق التوعية العلميّة وبـثّ الـروح الأخلاقيّة، من أعظم الأمور التي تسمو بالتعليم إلى أعلى درجات الرقي والازدهار.

ج – **إنشـاء المكتبات العموميّة**: تعرضت لبيان أهميّة المكتبات في التنمـية العلمـيّة أثناء حديثي عن مواضع التعليم عند المسلمين بوصفها إحدى المواضع المهمّة التي اعتنى بها المسلمون قديماً وحديثاً. وهذا الاهتمام بالمكتـبات ناتج عن أهميّة الكتاب في التعلم حتى في عصرنا الحاضر، رغم تطـور الوسائل التقنية وتوفر العديد من الوسائل التي يمكن أنْ يستخدمها المتعلّم، إلا أنّ الكتاب تبقى له الصدارة ضمن هذه الوسائل. ولذا، فليس بمسـتغرب أن تعـتني الأمـم المتحضرة بأمر المكتبة وتوفير الكتب لأبناء المجتمع، وتسهيل الاستفادة منها. ولقد أشار خير الدين التونسي إلى هذا الأمـر لـدى لأمـم الغربيّة بقوله: «ومن آثار اعتنائهم (يقصد الدول الأوروبية) بتوسيع دوائر العرفان، الذي هو أساس التمدن والتهذيب لنوع

الإنسان، كثرة خزائن الكتب الجامعة لسائر الفنون، وتسهيل طرق الانتفاع بها بحسن الإدارة والترتيب الحاسم لمواد العوائق»[1]. واستشعاراً لهذه الأهمّيّة في التنمية العلميّة، فإنّ الأمة الإسلاميّة في تاريخها القديم جعلت الكتاب من أول الأمور التي يعتني بها المتعلّم، لذلك يُسارع من اشتغل بالعلم إلى تقييد ما يسمعه في كتاب، وسارعوا أيضاً إلى استنساخ الكتب وتكوين مكتبات خاصّة بهم من سماعاتهم وابتياعهم من النساخ والوراقين. فضلاً عن ذلك، فإنّ خلفاء المسلمين وأمراءهم أدركوا أهمّيّة المكتبات في نشر العلم، فقاموا بإنشاء مكتبات عامة في المساجد والمدارس التي قاموا بتأسيسها.

وبناء على ذلك، فإنّ على المؤسسات التعليميّة ومراكز البحوث والدِّراسات أنْ تبذل قصارى جهدها لإنشاء المكتبات التي تكون مفتوحة للمتعلمين والباحثين والدارسين، وأنْ توفر لهم من الكتب والمراجع ما يكون عوناً لهم في دراساتهم وأبحاثهم وتعلمهم، إذ الملاحظ أنّ كثيراً من المكتبات التابعة للجامعات في العالم الإسلامي تشكو من قلّة الكتب والمراجع. ويضاف إلى ذلك، أنه في حال توفر المرجع المطلوب تكون منه نسخة واحدة، فإذا أراد الباحث الاستعانة به لم يعثر عليه لأنه مستعار أو مفقود أو موجود على حال يرثى لها. وهذا أمر يتعلق بمسألة تزويد

---

(١) زياد، معن: خير الدين التونسي وكتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ط٢ (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٨٥م) ص ٢٣٧.

المكتبات بالكتب المطلوبة وتوفير أكثر عدد ممكن من النسخ حتى لا تكون نسخة فريدة تتداولها أيدي الطلاب وكلّ يترك بها أثر مما يجعل عملية الرجوع إليها صعبة.

وهذا الأمر – أعني به إنشاء المكتبات العموميّة- لا يتحقق طبعاً إلا بوجود دعم مالي للمؤسسات التعليميّة ومراكز البحوث والدِّراسات مما يمكنها من إنشاء ذلك وتعميمه. ولكن لابد أنْ تسعى هذه المؤسسات من أجل ذلك، وتطلب من المؤسسات الأخرى أو المسؤولة تمويل مثل هذه المشاريع النافعة، وأنْ تمدهم بما يساعدهم على تحقيق ذلك، ولابد أنْ تجد مثل هذه الطلبات قَبولاً حسناً عند من يهمهم أمر التعليم في العالم الإسلامي، ويسعون في إصلاحه وتنميته.

٢- التعليم الذاتي:

تبين لنا بجلاء أثناء الحديث عن التصور الإسلامي للتعليم أنها عملية تستغرق زمان المتعلم كلّه، بمعنى أنّ الإسلام قد ألغى البعد الزمني في التعليم، حيث إنّ حياة الفرد المتعلم من الولادة حتى الوفاة وقفاً على هذه العلميّة. وبناء على ذلك، فمن أسباب العجز التعليمي في العالم الإسلامي -كما سبقت الإشارة إلى ذلك- حصر العمليّة التعليميّة في التعليم النظامي فحسب، بحيث إذا تخرج الطالب توقفت عملية التعليم لديه وودّع التعليم توديعاً أبدياً غير آسف ولا مكترث بمغبة فعله هذا.

ومن ثم، فإنّ الحثّ على مواصلة التعليم والمزيد منه أثناء التعليم النظامي وبعده يصبح ضرورة لازمة، على المؤسسات التعليميّة ومراكز البحوث والدّراسات في العالم الإسلامي أنْ تبذل جهداً في سبيل ترسيخ التصور الإسلامي لعملية التعليم ومنظوره للعلم. ولذا، فإنّ الإيمان بأهمّية هذا النوع من التعليم والشعور بخطره إنْ فقد، يهوّن الجهد المبذول في سبيل ذلك مهما عظم، ويسهل التضحية مهما كانت عسيرة، وربما يحببها إلى الأنفس مهما كانت بغيضة لديهم، ويحملونها عن رضا بعد أنْ تحملوها عن كره.

ولعلّ من أهم الأمور التي تحقق التصور الإسلامي للتعليم: التعلّم الذاتي، والمقصود به أنْ يعتمد المتعلّم على ذاته في تحصيل العلم، وأنْ تصبح هذه الصفة خُلُقاً له وسجية، بحيث يكون في أحواله كلّها مقبلاً على التعلم من تلقاء نفسه رغبة في تحصيل مزيد من العلم. والحقيقة أنّ التعلم الذاتي، بالمعنى الذي وقع تحديده، يكاد يكون معدوماً لا أثر له لدى كثير من المتعلمين في العالم الإسلامي، ولعلّ منهج التدريس قد ساهم في فقدان التعلم الذاتي، إذ يعتمد على إلقاء الدرس من قبل المعلم أو الأستاذ والإنصات من التلاميذ أو الطلبة، ثم استحضار ما قاله يوم الامتحان. فليس خافياً أنه لا يوجد هناك حثّ على القراءة خارج الفصول ولا ترغيب في الاعتماد على الذات في تحصيل العلم، لذلك فقد التعلم الذاتي قيمته وأهميته.

ناهيك عن أنّ هذا النوع من التعلم يحتاج إلى طول صبر ورياضة نفس ورباطة جأش ومضاء عزيمة، وهي أمور يعدّها المتعلمون المحدثون،

ولاسيما في العالم الإسلامي، ضرباً من الخيال لولا أنّ سِيَر الأئمة الأعلام تشهد على أنها حقيقة وليست خيالاً، بل لو لم يكن ذلك ديدنهم وخُلُقهم في التعلم وتحصيل التعليم لما بلغوا في العلم مبلغاً عظيماً. ولعلّ من أهم الأمور التي يستدل بها على ما كان عليه العلماء من شدّة الصبر وقوّة العزيمة في طلب العلم ما تجده في سير عُظَمائهم من الرحلة في طلب العلم، حتى أصبحت صفة يتسم بها من أراد تحصيل مزيد من العلم، وعلامة بها يعرف الأعلام ويميّز الأفذاذ، رغم ما كان في السفر آنذاك من مشاق ومتاعب لا يطيقها إلا أفراد قلائل ممن أراد الله بهم خيراً[1].

وبناء على ذلك، فإنّ مراكز البحوث والدِّراسات في العالم الإسلامي يكون لها دور كبير في بناء التعليم الذاتي وبثه بين المتعلمين من أبناء هذه الأمة، حيث إنّ هذه المهمة وإنْ عجزت عنها المؤسسات التعليميّة النظاميّة فإنّ بإمكان مراكز البحوث تكميل هذا العجز المؤسساتي، وذلك من خلال نشر الروح العلميّة توعية وتشويقاً إلى التعلم وإنشاء المكتبات العموميّة، فضلاً عن تشجيع خريجي الجامعات على القيام بأبحاث ودراسات في تخصصاتهم مما يعمّق التعليم الذاتي ويجذّره في أنفسهم، لأنّ الأبحاث والدراسات والتأليف لابد أنْ يعتمد فيها الباحث على نفسه، فإذا

---

(1) إنّ حرص الرعيل الأول من العلماء على طلب العلم دفعهم إلى الرحلة ولقاء العلماء، وتحمل المشاق، حتى إنهم اهتموا بالتأليف في الرحلات وآدابها. ولقد ذهب كثير من العلماء إلى أنّ الرحلة ضرورية في طلب العلم، يقول ابن خلدون: «فالرحلة لابد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال». انظر: ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ص٥٤٠.

تعود على ذلك شيئاً فشيئاً، تكون مراكز البحوث والدِّراسات قد غرست في نفســه التعلم الذاتي، سواء شعر بذلك أو لم يشعر، إذا حصل المقصود ووقــع المراد. وهذه الأمور قد سبق الحديث عن بعضها، ولذا فسأتحدث في هــذا المقام عن جملة من مهمات الأمور التي تساعد على نشر التعلم الذاتي بين المتعلمين، فضلاً عما تقدم ذكره.

أ - **عــدم الاكــتفاء بحجرات الدرس في التعلم**: يخطئ كثير من المتعــلمين في العــالم الإســلامي حين يظنون متوهمين أنّ عملية التعليم محصورة في المدارس والمعاهد والجامعات، أو بالأحرى في حجرات الدرس وقاعــات المحاضــرات فحسب. والحقيقة المؤلمة أنّ هذا التصور الخاطئ لعملــية التعليم هو المهيمن على عقول أكثر المتعلمين، وعليه فمن تخرج انقطعــت صلته بالتعلم وقَلَى العلم، فضلاً عما ترسّخ في عقول المتعلمين مــن أنّ الغاية من التعليم إنما هي حصول على الشهادة ثم التوظيف، فإذا حصــل ذلــك، فإلى هذا الحدّ يقف مبلغه من العلم. ونظراً لخطورة هذا الأمــر عــلى البــناء التعلــيمي في العالم الإسلامي، فإنّ لمراكز البحوث والدِّراســات أنْ توسّع من نشاطاتها لكي تمحو هذا التصور الخاطئ للتعليم محــواً، والــذي استكن في عقول المتعلمين وهيمن على سلوكهم العلمي، واســتبداله بالتصور الإسلامي الذي يرى أنّ التعليم عملية مستمرة داخل حجــرات الــدرس وخارجها. ومعنى ذلك أنْ يتم ترسيخ عدم الاكتفاء بحجــرات الدرس في التعلم في عقول أبناء المدارس والمعاهد والجامعات، بل

على المتعلم أنْ يبذل قصارى جهده خارج حجرات الدرس لتحصيل العلم وتنميته، بل إنّ التنمية العلمية الحقيقيّة إنما تحصل خارج حجرات الدرس.

ولـــذا، فمـــن الأهميّة بمكان أنْ تسعى المؤسسات التعليميّة ومراكز الـــبحوث والدِّراســـات في العالم الإسلامي من أجل توعية المتعلمين بأنّ الاعـــتماد عـــلى حجـــرات الدرس في التعلم لا يحقق الغاية المرجوة من التعلـــيم، ولا يســـاهم في إحـــداث نهضة علميّة، بل يساهم في تراجعه وانحطاطـــه. ولعلّ من أهم الأمور التي تساعد على اجتثاث هذا التصور الخاطـــئ لعملية التعليم واستبداله بالتصور الإسلامي الصحيح أنْ تسعى المؤسســـات العلمـــية ومراكز البحوث إلى فتح نوادي ثقافيّة تعليميّة من شـــأنها أنْ تستوعب الخريجين في مختلف مراحل التعليم، وتساعدهم على مزيد من التعلم، وتحثهم على ذلك حثاً فيه رفق ورعاية.

وزيادة على ذلك، فإنه بإمكانها استخدام وسائل الاتصالات الحديثة، ولاسيما أنّ لها تأثيراً قوياً في أنفس الشباب، وسرعة في الوصول، وسهولة في الاستعمال، لكي تحث الشباب الإسلامي وتحرضهم على التعلم المستمر الـــذي لا يقتصر على حجرات الدرس وقاعات المحاضرات. ولذا، فمن خلال هذا العمل المتواصل والتوعية المستمرة ونشر الروح العلمية، يحصل الاعتماد على الذات في التعلم، ولا يكتفى بحجرات الدرس دون سواها.

بالإضـــافة إلى ذلك، فإنّ بيان مواضع التعليم عند المسلمين الأوائل فيه دلالة كافية على أنّ عملية التعليم لـــم تكن مقصـــورة على مـــكان معيّن

لا تــتعداه، وموضع معلوم لا تتجاوزه، بل إنّ التعليم الإسلامي قد استثمر كــثيراً من المواضع لنشر العلم؛ فمن المنازل إلى المساجد، ومن الكتاتيب إلى الحوانيــت، ومن البلاطات إلى الدكاكين، وهذه المواضع كانت قبل ظهور المــدارس. ثم ظهرت المدارس في المجتمعات الإسلاميّة وبدأت تنتشر انتشاراً سريعاً نظراً لما حققته من نجاح في أداء وظيفتها التعليمية. زد على ذلك، فإنّ انتشار المدارس في العالم الإسلامي قد أدّى إلى انتشار المكتبات لتصبح موضعاً مهمّاً من مواضع التعليم لدى المسلمين. والحاصل أنّ توعية المتعلمين في العالم الإســلامي وتعــريفهم بمواضع التعليم عند أسلافهم يغرس في أنفسهم عدم الاكتفاء بحجرات الدرس والاعتماد عليها دون سواها في التعلم وتحصيل العلم.

ب – **بــثّ الطموح العلمي بين المتعلمين**: لا تنال المعالي إلا بشق الأنفــس والتضــحية، وإنّ من معالي الأمور وأولاها بالتقديم والاهتمام تحصــيل العلم، بحيث يكون الإنسان مهيئاً للعطاء العلمي ومؤهلاً لذلك تأهيلاً ينم عن تضحية، بفضل ما يبذله من جهد ومثابرة في سبيل ذلك. وهــذه الأمنــية لا تتحقق إلا لمن كان له طموح علمي، بحيث لا يقنع بوضــعه الذي هو عليه، بل إنه يدأب دأْباً مستمراً لتحسين وضعه المعرفي وتحصيل أكثر ما يمكن من العلم، وليكن على بيّنة أنه مهما بلغ من العلم مبلغاً فهو قليل، وأنه فوق كلّ ذي علم عليم، وأنْ يطلب المزيد باستمرار كمــا أوصــى الله ﷻ نبيه ﷺ بذلك تنبيهاً لنا وتعليماً، فقال تعالى:

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:١١٤). ولذلك قال سعيد بن جبير ﷺ: «لا يزال الرجل عالماً ما تعلم، فإذا ترك التعلم وظنّ أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون»[١].

وهـــذا الطموح العلمي لدى المتعلمين في العالم الإسلامي هو الذي يساعد في البناء التعليمي وتشييد صرحه وتعليته، ويساهم في إحداث ثورة علمـــيّة تخـــرج الأمـــة مـــن تخلفها العلمي وانحطاطها المعرفي وتراجعها الحضـــاري. وعلـــيه، فليس بمستغربٍ أنْ نرى أبناء العالم الغربي لديهم طمـــوح علمي يكاد يبلغ عنان السماءِ، بحيث تجد أحدهم يعكف طِوال حـــياته على الدرس والبحث والمطالعة، ولا يصيبه سأم، ولا يتطرق إليه ملل، ولا يعتريه ضجر، لأنّ لديهم طموحاً علمياً ليس له حدود.

وأما وضع المتعلمين في العالم الإسلامي فإنه يدعو إلى الشفقة والتألم من فقدان الطموح العلمي لدى الغالبيّة العظمى من أبنائه. ولعلّ فقدان مثل هـــذا الطموح في مجال العلم والتعلم جعلهم يعرضون عن القراءة والمطالعة والبحث خارج حجرات الدرس وقاعات المحاضرات، ولا يعيرون اهتماماً لتنمية مستواهم العلمي، نظراً لفقدانهم أي طموح علمي يمكن أنْ يدفعهم تجـــاه البـــناء التعليمي المستمر طيلة الحياة. وبناء على هذا الوضع المتردي لـــدى المتعلمين في العالم الإسلامي، وضعف الهمم، فيكون من مشاريع

---

(١) ابن جماعة: بدر الدين بن أبي إسحاق الكناني: **تذكرة السامع والمتكلّم في أدب العالم والمتعلّم** (بيروت: دار الكتب العلميّة، بدون تاريخ) ص٢٨.

المؤسســـات التعليمـــيّة ومراكز البحوث والدِّراسات إعادة بثّ الطموح العلمي الذي اتصف به علماؤنا الأوائل، فبلغوا حظاً من العلم وافراً.

وفي هـــذه المهمّـــة الجســيمة يمكـــن أنْ تستعين مراكز البحوث والدِّراســـات بوسائل الاتصال الحديثة من قنوات إذاعية مرئية ومسموعة ومواقع «الإنترنيت» وغيرها، مما يساعدهم على أداء هذه المهمّة وتعميمها في وقت قصير. وعلى الجملة، لابد أنْ تسعى المؤسسات التعليميّة ومراكز البحوث والدِّراسات في العالم الإسلامي بكل الوسائل المشروعة والطرق المباحة لإعادة حيوية التعليم وفاعليته، وذلك بإحياء الطموح العلمي لدى المتعلمين من أبنائها.

ج – **الاهتمام بالتعليم المستمر:** يلاحظ المتتبع لأمر التعليم في العالم الإسلامي أنّ في كل مرحلة من مراحل التعليم النظامي تنقطع نسبة كبيرة من المتعلمين عن مواصلة التعليم؛ ففي مرحلة التعليم الابتدائي يتخلى كثر مـــن الصـــبية عـــن المدرسة إما رغبة عن التعليم أو بسبب الرسوب في الامـــتحانات أو غير ذلك. ثم في مرحلة التعليم الثانوي يقع الشيء نفسه وللأســـباب نفســـها، ولا يصل إلى التعليم الجامعي إلا فئة قليلة، وهؤلاء أيضـــاً يتوقف كثير منهم عن مواصلة التعلم. ومعنى ذلك أنّ نسبة كبيرة مـــن أبـــناء العالم الإسلامي خارج دائرة التعليم النظامي، ونظراً للمعنى الســـائد بأنّ التعليم محصور في حجرات الدرس، فتنقطع صلة هذه النسبة الكـــبيرة من أبناء المجتمعات الإسلاميّة بالعلم والتعليم، وتصبح كَلاًّ على الأمـــة الإســـلاميّة. فهـــذه المشكلة الخطيرة على البناء التعليمي في عالمنا

الإســلامي، والتي بطبعها تعرقل سَيــر التنمية العلميّة والنهضة التعليميّة، تدعو المسؤولين عن سياسة التعليم وتدبير شؤونه أنْ يفكروا جادين لحلّ هــذه المعضلة، إيماناً منهم أنه لا يمكن تحقيق تنمية علميّة ونسبة كبيرة من أبناء الأمة معرضة عن التعليم منقطعة صلتها بدور العلم.

وفي تقديــري المتواضع أنّ الاهتمام بالتعليم المستمر، سواء من قبل المؤسســات التعليميّة أو من قبل مراكز البحوث والدِّراسات، يساهم إلى حــدّ كبــيــر في إزالة هذه المشكلة وتلاشيها. وقد تقدمت الإشارة إلى معنى التعليم المستمر وأنه يقابل التعليم النظامي، بحيث تتاح فرص التعليم لنسبة كبيرة من أبناء المجتمعــات الإســلاميّة الذين لم يتمــكنوا لسبب أو لآخر من الالتحاق بالتعليم النظامي أو التحقوا ثم انقطعوا عنه.

وهذا النوع من التعليم، أعني التعليم المستمر، ليس هو التعليم الذاتي الذي أشرت إليه آنفاً، إذ قد يشتبه أمرهما على كثير من الباحثين، والفرق بيــنهما أنّ التعليم الذاتي يكون بتوعية المتعلم نفسه للاعتماد اعتماداً ذاتياً في تحصــيل العلم، ولا يقتصر عما يسمعه في حجرات الدرس فحسب، بينما التعليم المستمر يقوم بمهمة تعليم من عجز التعليم النظامي عن توفير فرصة له، حيث إنّ التعليم النظامي مهما توسّع في استيعاب المتعلمين فإنه لا يقــدر عــلى استيعاب كل من رغب في التعلم، ولا أنْ يوفر التعليم للصــبية كــلهم في عالمــنا الإســلامي. لكن الملاحظ أنّ كلا النوعين مــتكاملين، لأنّ التعــلم الذاتي يتضمن الاستمرار في تحصيل العلم طيلة الحياة، وهذا المعنى نفسه متوفر أيضاً في التعليم المستمر.

وبناء على ذلك، فيمكن أنْ يتم الاهتمام بالتعليم المستمر وتوفيره لأبناء المجتمعات الإسلاميّة عن طريق التعاون والتنسيق بين المؤسسات التعليميّة ومراكز البحوث والدِّراسات، بحيث لا يحتاج الأمر إلى تكاليف مادية باهظة، بل يمكن أنْ تستخدم مباني التدريس النظامي لهذه المهمّة في غير أوقات التدريس مثل التعليم الليلي. فيقع استخدام المواضع نفسها للتعليم النظامي والتعليم المستمر إذا تَم التعاون والتنسيق، والأمر يسير لكن بعض الأنظمة والقوانين تجعله عسيراً، لأنها لا تعير التعليم المستمر أي اهتمام. وهذا لا يعني أنّ العالم الإسلامي خِلْو من التعليم المستمر، بل هناك بعض الأقطار الإسلاميّة التي تمارس مثل هذا النوع من التعليم، إلا أنّ التعليم المستمر بهذا الوضع الحالي ليس شاملاً للعالم الإسلامي كلّه، بل هو محلي.

بالإضافة إلى ذلك، فإنّ هناك وسيلة أخرى يمكن استخدامها وتحقق التعليم المستمر، بحيث يتخذ صفة العالميّة، فتكون على مستوى العالم الإسلامي، كلّه وأعني بذلك الجامعات المفتوحة[1]. فتكوين جامعات مفتوحة على مستوى العالم الإسلامي تتيح فرصاً كثيرة لتعليم أكبر نسبة ممكنة من المسلمين، فضلاً عن أنها تعمل على استثمار قدراتهم العلميّة وتنميتها بدل الضياع والتلاشي إذا ما تُرِكوا بدون تعليم. ولذا، فإنشاء جامعة مفتوحة في العالم الإسلامي تحتاج إلى جهد كبير وتنسيق وتعاون

(١) المقصود بالجامعة المفتوحة تلك الجامعات التي تعتمد في التدريس على «الإنترنت»، بحيث إنّ الاتصال بين الجامعة وطلبتها يكون عبر موقعها في «الإنترنت». وهي طريقة في التدريس تيسر على كثير من الناس ممن لم يلتحق بالتعليم النظامي أو أنّ وقته لا يسمح للحضور الانتظامي في الفصول أو غيرها.

بـين المؤسسات التعليميّة النظاميّة ومراكز البحوث والدِّراسات. وزيادة على ذلك، فإنّ هناك بعض الجامعات الإسلاميّة المفتوحة مثل الجامعة التي بأمـريكا وسميتها بلندن وغيرهما إلا أنها خارج العالم الإسلامي، ولا يعني ذلـك التنقـيص مـن قيمتها وأدائها، ولكن الأولى أنْ يكون في العالم الإسـلامي مثيلاتها، حتى يتم التعرف عليها من قبل أبناء الأمة الإسلاميّة ويسـتفيدوا مـن خدماتها، ناهيك عن أنّ بعض الدول العربيّة قد قامت بإنشاء جامعات مفتوحة، إلا أنّ انتشارها واستخدامها لا يزال محدوداً في معظم دول العالم الإسلامي ومجهولاً في بعضها الآخر.

وعلى الجملة، فهذا ما عنّ لي من حديث عن دور مؤسسات البحث العـلمي ومراكـز الدِّراسـات، فضلاً عن المؤسسات التعليميّة في البناء التعلـيمي، وما ينبغي أنْ تبذله من جهد متواصل ومكثف من أجل نشر الـروح العلميّة، توعية وتشويقاً وإنشاءً للمكتبات العموميّة. يضاف إلى ذلك الاعتناء بالبحث العلمي نظراً لما له من أهميّة كبرى وخطورة قصوى في البـناء التعليمي، ويكون ذلك بالتشجيع عليه، ومد يد المساعدة مادياً ومعنوياً للباحثين والدارسين في مختلف الميادين المعرفيّة والعلميّة. زد على ذلـك، محاولة الاستفادة من الأوقاف الخيرية لتمويل مؤسسات البحث العـلمي ومراكز الدِّراسات، وألا تهمل في مشاريعها التعليميّة استقطاب الأدمغة الإسلاميّة المهاجرة، نظراً لحاجة العالم الإسـلامي إليهم، وذلك لما يتمتعون به من كفاءات وقدرات في ميدان البحث العلمي، لاسيما أنّ تخصصـاتهم هي من آكد الاختصاصات لدى أقطار العالم الإسلامي، بل

وآكدهـــا ضـــرورة وحاجة. وثَمة أمر آخر أكدته كثيراً أثناء بيان دور مؤسسات البحث العلمي ومراكز البحوث والدِّراسات في التنمية التعليميّة والنهضة العلميّة، وهو مسألة التعريب والترجمة والتأليف، ومحاولة تنسيق هذه الجهود محلياً على مستوى كلّ بلد إسلامي، فضلاً عن تنسيقها عالمياً عـــلى مستوى أقطار العالم الإسلامي جميعاً، لما لهذا التنسيق من أثر فعّال ودور حيوي في البناء التعليمي وتشييد صرحه وتعليته.

وأمـــا آخر مسألة أكدتها في هذا الصدد فتتعلق بالتعلم الذاتي وعدم الاكـــتفاء بحجرات في عملية التعليم، فضلاً عن الطموح العلمي ، وهي مسألة لابد أنْ تستكن في الوعي الجمْعي للأمة الإســـلاميّة، وتصبح جزءاً لا تتجزأ من ثقافتها، إنْ هي أرادت بناء تعليمها بناءً يحقق نهضة حضارية وتقدمـــاً علمياً. يضاف إلى ذلك كلّه، الاهتمام بالتعليم المستمر لما له من علاقـــة بالتعـــلم الـــذاتي، بحيث إذا بذلت المؤسسات التعليميّة ومراكز الـــبحوث والدِّراسات جهوداً في سبيلها، وقامت بنشرها بين أبناء الأمة الإســـلاميّة، فقـــد ساهمت في إيجاد مجتمع متعلم يمكن أنْ ينهض بالبناء التعليمي إلى أرقى المستويات وأسمى الدرجات.

٣- النهوض بالتعليم الأولي:

ذكـــرت من قبل أنّ المقصود بالتعليم الأولي في هذه الدِّراسة المرحلة التعليميّة التي يستغرقها الصبي منذ ولادته حتى فراغه من التعليم الابتدائي. ومعنى ذلك أنّ التعليم الأولي تتقاسمـــه مرحلتان متلازمتان وهما مرحـــلة مـــا قبل المدرسة ثم مرحلة المدرسة، وبهما معاً يتكون التعليم الأولي، ومن

ثَـــم فلابد من الاعتناء بهما معاً. ويظن كثير من الناس ظناً خاطئاً أنّ هذه المرحلة من التعليم أسهل مرحلة وأيسرها، ولذلك فهي لا تحتاج إلى كبير عناء أو كثير استعداد. ولكن الحقيقة أنّ مثل هذا الظنّ الكاذب وسيطرته عـــلى عقـــول كثير من المربين في العالم الإسلامي جعلهم لا يعيرون هذا الـــنوع من التعليم أيّ اهتمام، وفي هذا الإهمال مضرة بالصبيان ما بعدها مضـــرة. وعليه، فيعلم الآباء والأمهات والمعلمين والمربين أنّ واقع الأمر خـــلاف مـــا يظـــنون، حيث إنّ التعليم الأولي يحتاج إلى صبر، ودقة في الملاحظـــة، واســـتمرارية في المراقـــبة، ويقظـــة في الملاحظة، ونباهة في الإشراف، وليس هذا بالشيء الهيّن اليسير الذي يستطيع أنْ ينهض به من لم يكن مؤهلاً ومهيأ لهذه المهمّة.

ومـــن ثَم، فإنّ الخطورة الكبيرة على التعليم الأولي تكمن في جهل المشـــرفين عليه بأهميته وأثره في البناء التعليمي، والتنمية العلميّة المستقبلية عـــلى مستوى الفرد والمجتمع. ولذا، فإذا كان هناك قصور أو تقصير من المشـــرفين عـــلى التعليم الأولي فإنّ آثاره السيئة ستنعكس على الصبية، وتكون له آثار سلبيّة على المسيرة التعليميّة للصبي في الغالب.

ونظراً لأهميّة التعليم الأولي، وخطورة أمره في الوقت نفسه، سأقوم ببيان كيفية النهوض بالوضع المتردي للمعلمين، فضلاً عن إعادة النظر في أمر الامتحانات، التي كثيراً ما تتسبب في كراهيّة الصبية وبغضهم للتعليم والمعلمين والمدرسة، وكلّ ما له علاقة بذلك.

أ - **الاعتـــناء بالتعلـــيم البيتي**: لاشك أنّ للأسرة أثراً كبيراً وشأناً عظيماً في تربية الأولاد وتعليمهم، بل لا نعدو الصواب إذا قلنا: إنّ اعتناء الأســـرة بأمـــر صـــبيتهـــم تربيةً وتعليماً وتثقـــيفاً هو الضمان الوحيد والأساس لإنشاء جيل نافع يقوم بالبناء التعليمي والإصلاح المطلوب، من أجـــل إحـــــداث تنمية علميّة ونهضة حضارية. ومن ثَم، نجد علمـــاء التربـــية المعاصـــرين يؤكدون أهمية التعليم في مرحلـــة ما قبل المدرســـة (Pre-School education)، بـــل إنّ التعليم المدرسي قد يتم كلّه في البيت إذا كان للأسرة رغبة في ذلك[1].

وعلـــيه، فليس بمستغربٍ عن تعاليم الإســـلام أنْ تهتم بأمر الأسرة، وما يجب عليها تجاه صبيانها من توفير البيئة الصالحة والأسوة الحسنة، حتى تتم المحافظة على الفطرة التي فطر اللهُ ﷻ المولودَ عليها وتنميتها. والسبب في ذلـــك راجع إلى كون هذه الفطرة السليمة معرضة للانحراف والتشويه إذا لم يُحسن الأبوان المحافظة عليها ورعايتها من هذا الأمور الحافّة بها من كـــلّ مكـــان. وهذه القضـــايا كلّها لخصها من أوتي جوامع الكلم ﷺ بقولـــــه: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَـــدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ**

---

(١) مـــن حق الأسرة في الغرب، أن تحتفظ بأولادها في البيت فلا ترسلهم إلى المدرسة وتقوم هي بهذه المهمة، وذلك في حالة إذا ما أبدت الأسرة استعداداً وكفاءةً لتقديم التعليم المطلوب مـــثله فـــي المدرسة. وهذا النظام معمول به وإنْ لم يكتب له الانتشار، إلا أنه يترك فسحة أمام الأسرة لكي تختار لصبيتها التعليم الأحسن والأنسب. انظر بخصوص هذه الجزئيّة:
Nelson, Jack L.and others: **Critical Issues in Education** (New York: The McGraw-Hill Companies, Inc. third editon,1996), p.86.

أَوْ يُمَجِّسَانه»[1]. ومعنى ذلك أنّ التعليم يبدأ منذ الولادة، وأنّ الأب والأم هما المعلمان الحقيقيان للولد قبل أي معلم وبعد أي معلم[2].

فإذا تبين أنّ للأسرة أثراً كبيراً في تكوين شخصية الطفل وتوجيه تصرفاته وتقويم سلوكه، فلابد من استثمار البيئة الأسريّة لتربية الطفل وتعليمه. لكن المشكلة ليس في إثبات أهميّة الأسرة وخطورتها في التعليم الأولي، ولاسيما في مرحلة ما قبل المدرسة، ولكن المشكلة التي أعضل داؤها أنّ كثيراً من الأسر في العالم الإسلامي تجهل هذا الأمر جهلاً تاماً. وبناءً على ذلك، فإنها لا تعير للطفل اهتماماً من حيث تعليمه وتربيته وتثقيفه. فضلاً عن ذلك، فإنّ كثيراً من الأسر تتكون من أبوين أميين مما يجعل استيعابهما لأهميّة التعليم الأولي أمراً عسيراً. ولذا، فلا غرو أنْ تكون أمام المؤسسات التعليميّة في العالم الإسلامي إنْ رامت إصلاحاً للتعليم الأولي والاهتمام بأمره مشكلتان؛ إحداهما أميّة الأبوين، وثانيتهما الجهل بأهميّة التعليم الأولي. أما بالنسبة لأمية الأبوين فقد ذكرت لها حلاً من قبل وهو التعليم المستمر، حيث يعتني بتعليم من هم خارج التعليم

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أشار روسو في كتابه «إميل أور في التربية» إلى أنّ «المغذية الحقيقية للولد هي الأم، والمعلم الحقيقي له هو الأب»، والصحيح أنّ الأب والأم يشتركان في تربية الولد وتعليمه ولا ينفرد الأب بذلك، كما أومأ الحديث إلى أنّ أبواه يهودانه أو يمجسانه وليس الأب فحسب. انظر:

Rousseau, Jean-Jacques: **Emile or in Education**, translated by Allan Bloom (U.S.A: Basic Books, 1979), p.48.

النظامي، فيكون هذا النوع من التعليم شاملاً لأولياء التلاميذ. ويضاف إلى ذلك أنّ الاهتمام بهذه الفئة من الناس يساهم في تكوين مجتمع متعلم يحب العلم وأهله وإنْ لم يكن هو عالماً، وكما ذكرت سابقاً أنّ ذلك شرط أساس للتنمية العلميّة وتحقيق الشهود الحضاري.

وأما بالنسبة لجهل الأبوين بأهميّة التعليم الأولي وخطورته ودور الأسرة الحيوي في تعليم الصبية وتربيتهم فأمر ذو بال، لابد أنْ تجتهد المؤسسات التعليميّة في العالم الإسلامي لإزالة هذا الجهل وإشعار الأسرة بمسؤوليتها الضرورية والأولية عن تعليم أطفالها. إذن، فالتوعية الأسرية بدورها وأثرها في تربية الأولاد وتعليمهم أمر يمكن أنْ تقوم به المؤسسات التعليميّة عن طريق التعليم المستمر للكبار والأميين، كما سلف بيانه، فضلاً عن استخدام وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، ولاسيما جهاز التلفزيون، بحيث يسخر لإذاعة برامج مكثفة حول الأسرة وأهميّة دورها في تعليم الأولاد.

فإذا تّم هذا الأمر، لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ كل بيت حتى في القرى النائية والمناطق المعزولة يوجد بها جهاز تلفزيون، وبذلك تتيسر عملية التوعية، فضلاً عن سرعة انتشارها وشيوعها بين أفراد المجتمعات الإسلاميّة. وبناء على ذلك، فإنّ من مسؤوليات المؤسسات التعليميّة الراغبة في إصلاح التعليم وجديتها في الاهتمام بالتعليم الأولي والعناية بشؤونه أنْ تقوم بإعداد البرامج الأسرية المناسبة لهذا الموضوع والملائمة لهذا المقام. فإذا حظي التعليم البيتي باعتناء الأسر واهتمامها، وذلك بعد

توعيـــتها بواجـــبها نحـــو الطفل، فلابد بعدها من الاعتناء أيضاً بالتعليم الابتدائي الذي يعدّ جزءاً لا يتجزأ من التعليم الأولي.

ب – الاعتـــناء بالتعليم الابتدائي: إذا زال خطر التعليم البيتي على عملية التعليم الأولي، فيبقى خطر التعليم الابتدائي قائماً. ومن ثَم، فلابد من العمل على إزالة هذا الخطر إذا رمنا النهوض بالتعليم الأولي وتنميته، لإعداد جيل متعلم ينهض بدوره الحضاري في البناء التعليمي. ولاشك أنّ المؤسسات التعليميّة تبذل جهداً لإصلاح التعليم الأولي من حيث المناهج والـــبرامج والكتب المدرسيّة المستخدمة في عملية التعليم في هذه المرحلة الابتدائـــيّة. زد عـــلى ذلك، فإنّ كثيراً من أقطار العالم الإسلامي تسعى لإنشاء أكثر ما يمكن من المدارس لاستيعاب أكبر عدد ممكن من الأطفال الذيـــن بلغـــوا ســـنّ التعلم. ولاشك أنّ مثل هذا الجهد يساهم في البناء التعلـــيمي، ويساعد إلى حدّ كبير في النهوض الحضاري والتنمية العلميّة. ولـــذا، فلا أريد التعريج على مثل هذه الأمور التي هي في طور الإصلاح والاعتـــناء، ولكن الأولى أنْ أنبه على أمر آخر، بحيث إذا تَم النهوض به، فقد تَم النهوض بالتعليم الأولي، وهو النهوض بالمعلّم المشرف المباشر على تعليم الصبية في المدرسة.

لم أتحدث عن المناهج والبرامج والكتب المدرسيّة، وهي أمور لاشك في أهميتها لنجاح التعليم إذ بإمكان المؤسسات التعليميّة أنْ تستعين بخبراء وفنيين في مثل هذه الأمور. ولذا، فقد اخترت الحديث عن المعلم لأنه في

تقديري أصل الداء والدواء معاً، والسبب الرئيس للمشكلة. وليس سبيل النهوض بالتعليم الأولي، ولاسيما الابتدائي منه، محصور في توفير المناهج الجيّدة والبرامج المتقنة والكتب المدرسيّة الملائمة فسحب، وإنما سبيل ذلك أنْ يُنفّذ المنهاج الجيد والبرامج النافعة تنفيذاً صالحاً ومنتجاً. والسبيل الوحيد إلى ذلك كلّه هو المعلم الصالح المتفهم لتلك البرامج والمناهج والكتب، والقادر على تنفيذها على أحسن وجه وأتمه. ومعنى ذلك أنّ المؤسسات التعليميّة إذا أرادت فعلاً أنْ تعتني بالتعليم الأولي فلابد لها من العناية بأمر المعلم، ولتعلم علم اليقين أنّ كلّ تعليم مهما يكن نوعه أو مستواه لا يستقيم أمره إلا إذا نهض به المعلم الكفء، وأما بدون هذا الأمر فيعد إضاعة للجهد فيما لا طائل تحته.

وبناء على ذلك، فإنّ المؤسسات التعليميّة في العالم الإسلامي إنْ رامت إلى إعداد جيل متعلم صالح للبناء التعليمي، ومستعد للعطاء العلمي، خليقة قبل كلّ شيء بأنْ تفكر في المعلمين الذين ينشّئون لها هذا الجيل، إذ إنّ أفراد المجتمع كانوا صبية قبل أنْ يصبحوا رجالاً. فإذا لم تتقدم مرحلةَ الرجولة تأديبٌ وتعليم وإصلاحُ أخلاق فلا تنتظر من مثل هذا الجيل نهضة حضارية ولا تنمية علمية، لسبب بسيط وهو أنّ فاقد الشيء لا يعطيه، وأنّ الرجل ينشأ على ما تعود في صباه. ومن ثَم، فإنّ على المؤسسات التعليميّة أنْ تكون هي المسؤولة عن إيجاد المعلم الكفء، الذي ينهض بأعباء التعليم الأولي على أحسن وجه وأكمله.

فأمـــا بالنسبة للمعلمين الذين يعملون حالياً في التعليم، فإذا لاحظت من بعضهم عدم الكفاءة والأهلية فإنّ الحلّ الذي اقترحه ليس بطردهم من وظـــائفهم، لأنّ الـــلجوء إلى مثل هذا الحلّ يتسبب في مشكلة اجتماعيّة أخرى، وأعني بذلك كثرة البطالة، فضلاً عن أنّ هناك نقصاً كمياً في عدد المعـــلمين لدى بعض الأقطار الإسلاميّة. ولكن الأفضل أنْ تقوم وزارات التعليم في العالم الإسلامي بدورات تدريبيّة تكميلية لتأهيل من هو بحاجة إلى ذلك. وبهذه الطريق تكون المؤسسات التعليميّة قد عملت على تحسين كفاءة المعلمين الذين ظهر منهم تقصير في أداء وظيفتهم وتنمية أهليتهم، وفي الوقت نفسه لم تتسبب في إيجاد مشكلة اجتماعيّة – أي المساهمة في تكثير العاطلين عن العمل– وذلك فيما لو اتبعت سياسة الطرد لمن بدا منه إهمال أو تقصير تجاه تعليم الصبية.

ج – **جعل الامتحان وسيلة لاختبار المتعلمين:** هناك مشكلة تواجه العـــالم الإســـلامي اليوم، وعلى الرغم من كونها مشكلة عسيرة إلى أبعد حـــدود العســـر، فهي أيضاً يسيرة إلى أقصى غايات اليسر، وأعني بذلك مشـــكلة الامـــتحان. والسبب في ذلك راجع إلى جعل الامتحان المقياس الوحـــيد لتقييم الصبية والتلامذة والطلاب، وحسبك بهذا فساداً للتعليم، وإفســـاداً للمتعـــلمين. فهذا المقياس المعتمد لدى المؤسسات التعليميّة في مخـــتلف مـــراحل التعليم جعل من الامتحان غاية، مع أنّ الأصل فيه أنه وســـيلة. وهذا الأمر أدى ضرورة إلى فساد أخلاق المتعلمين «لأنّ هؤلاء

الشـــباب ينشأون على العناية بالامتحان وهو تافه، وعلى إكبار الشهادة وهي سخيفة، وعلى الإعراض عن العلم وهو لبّ الحياة وخلاصتها»[1]، بحيـــث أصبحت المدرسة والمعهد والجامعة عبارة عن مصنع يهيئ الصبي والتلميذ والطالب للامتحان ليس غير، وفي ذلك بلاء عظيم.

فإذا كان أمر الامتحان يسيراً، فما الذي جعله عسيراً؟ فنقول جواباً عـــن ذلك: إنّ مشكلة الامتحان لا يمكن التخلص منها؛ لأنها أمر يسير علـــيه التعلـــيم في العالم كلّه، ولا شك أنّ الشهادة التي يتوصل إليها عن طريق أطوار من الامتحانات شرط ضروري في التوظيف. إذن، فلا يمكن التخلص من مشكلة الامتحان بإلغائها رأساً، لأنه من الخطل التخلص من مشكلة والوقوع فيما هو أشكل منها، حيث إن إلغاءه يؤدي إلى فوضى اجتماعيّة كبيرة، وبطالة مضرة بنظام المجتمع، وربما يكون هذا الإلغاء باعثاً على الخمول والكسل. وبالمقابل فإنّ التشدد في الامتحان والاعتماد عليه اعـــتماداً مبالغاً فيه حتى أصبح ذلك جزءاً من ثقافتنا، وأصلاً من أصول تصورنا للمتعلم والحكم عليه بالنجاح أو الإخفاق، أدى إلى فساد خلقي عظـــيم، وانحـــراف علمي خطير[2]. والحاصل أنّ هذا التصور المقلوب للامتحان جعل التعليم وسيلة بعد أنْ كان غاية، والامتحان غاية بعد أنْ كـــان وسيلة. ومجمل الأمر أنّ الامتحان أمر لابد منه، ولكن في الإمكان التخفيف مما أدى إليه من إشكالية في التعليم، فنكتفي بأقل قدر ممكن منه،

---

(١) حسين، طه: **مستقبل الثقافة في مصر**، ط٢ (مصر: دار المعارف ، ١٩٩٦م) ص١٢٦.

(٢) ثم لا يقف الأمر عند الفساد الخلقي والانحراف العلمي، بل يتعداه إلى فساد سياسي.

فـــلا نثقل به المتعلمين، فنضطرهم إلى الشر، ما وسعنا ذلك[1]. ولا يتم التخلص من مشكلة الامتحان إلا إذا أعدنا الأوضاع المقلوبة إلى ما كانت علـــيه؛ بحيث يصبح التعليم غاية والامتحان وسيلة. وهذا التصور السليم للتعليم والامتحان يصعب على من أُشرب خلافه وتعود على مناقضته أنْ يتقبله بقبول حسن.

ومن ثَم، فإنّ على المؤسسات التعليميّة في العالم الإسلامي أنْ تسعى إلى إعـــادة الأمـــور إلى نصابها، فتقوم بتيسير أمر الامتحانات، وأنْ تجعله وســـيلة لمعرفة من هو مؤهل للمرحـــلة الدراســـيّة التي ينـــتمي إليها. وأمـــا بالنسبة لمعرفة المتفوق من المتعلمين، فإنّ ذلك لا يكون عن طريق الامـــتحان، نظـــراً لما يحتمله من تضليل وخداع، فقد يكون هذا التفوق بســـبب غش في الامتحان سواء من قبل المتعلم أو المعلم. فالطريق الأمثل لمعـــرفة الـــتفوق هو سيرة المتعلم نفسه، التي تكشف لنا مع مرور الأيام كشفاً لا لبس فيه عن الطالب الممتاز من غيره.

وليس خافياً أنّ في سيرة من سلف من علمائنا ما يؤيِّـــد هذا الأمر ويؤكـــده تأكيداً، إذ إنّ الأئمة الأعلام لم يشتهروا بالنجاح في الامتحان، ولا بكثرة الشهادات الجامعيّة، ولكنّ حصيلتهم العلمية وسيرهم التعليميّة

---

(١) لعـلّ مـن أكـبر الشر الذي يضطر إليه المتعلم هو الغشّ في الامتحان، وسببه أنّ الامـتحان غايـة والنجاح غاية الغايات، فعليه أنْ ينجح في الامتحان للحصول على غايـته، وتحقـيق أمنيته، فإذا لم يتمكن من ذلك بطريق خيّر، يلجأ إلى طريق الشرّ، فـيقوم بالغش والتدليس، مما يزرع في أنفسهم أنّ الغاية تبرر الوسيلة، وفي ذلك فساد خلقي ما بعده فساد، فليتأمل!!

هي التي شهدت على تفوقهم فيما اختصوا فيه من العلوم، وما امتازوا من الآداب والأخلاق في ذلك كلّه. فضلاً عن ذلك، فإنّ للمعلم شأناً كبيراً في تقييـــيم المتعلم دون حاجة إلى الامتحان، حيث إنّ شهادة المعلم تكفي لتقييم المتعلم كما كان شأن العلماء في القديم[1].

وأمـــا في عصـــرنا الحاضـــر فلا قيمـــة للمعلم في تقييم المتعلم، بل أســـندت هـــذه المهمّة إلى الامتحان فحسب. إذن، فعلى المؤســـسات التعليميّة في العالم الإسلام أنْ تعمل على جعل الامتحان وسيلة في التعليم ولـــيس غايـــة، وذلك بأنْ تقوم بتيسيره قدر الإمكان، وأنْ تجعل للمعلم مكانـــة في تقييم المتعـــلم، لأنه مؤتمن عليه، فلابد أنْ يمـــنح ما يـــلائم هـــذه الأمانة من الثقة والاطمئنان لتقييمه. والحاصل أنّ النهوض بالتعليم الأولي يعـــدّ الخطوة الأولى باعتبارها وسيلة تصويب للنهوض بالتعليم في العـــالم الإسلامي والخروج به من أزمته التي يعيشها. فالملاحظ أنّ هناك إهمـــالاً لأمـــر الصبي، وتغافلاً عن وضع المعلّم، وتعظيماً لشأن الامتحان تعظيماً مبالغاً فيه.

---

(١) تقدمت الإشارة إلى أنّ الإمام مالك رحمه الله لم يجلس للتدريس والإفتاء إلا بعد أنْ شهد له ســـبعون من علماء المدينة أنه أهلٌ لذلك، وهكذا الأمر بالنسبة لمن يقرأ في سيَـــر العلماء الأعـــلام. ثم إنّ عملية التقييم بهذه الطريق تجعل العلاقة بين العالم والمتعلم علاقة وطيدة وقوية، إذا ما تّم الالتزام بآداب العـــالم والمتعـــلم الذي أفردها العلماء بالتأليف ومن بينهم أبو الحسن القابسي في «**الرسالة المفصّـلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين**»، وبدر الدين بن جماعة في «**تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**».

٤- الاعتناء بالبحث العلمي:

تقدم الكلام في المطالب السّابقة على أهم الأمور التي تساهم في تنمية التعليم في مختلف المجتمعات الإسلاميّة، ونتعرض في هذا المطلب الأخير إلى البحث العلمي، وأنّ الاهتمام بأمره يعدّ أمراً ضرورياً للرقي بالعلم وتطويره، للخلاص من التراجع الحضاري الذي تعيشه الأمة الإسلاميّة.
ومن الأمور التي دعتني للحديث عن هذا الأمر هو أنّ كثيراً من الجامعات في العالم الإسلامي عارية من وجود مركز للبحوث والدِّراسات، ومعنى ذلك فقدان عنصر مهم في الدِّراسات الجامعيّة وهو التشجيع على القيام ببحوث ودراسات نافعة في مختلف التخصصات العلميّة وشتى ميادين المعرفة. ثم إنّ عدم وجود مراكز للبحوث والدِّراسات في كثير من الجامعات يغرس في وعي المتعلمين أنه لا فائدة من البحث العلمي ما دام أولو الأمر ليس لهم أيّ اهتمام به، وذلك على الرغم من أنّ مثل هذا الاستنتاج قد يكون خاطئاً، وأنّ من الممكن أنْ يكون عدم وجود مركز للبحوث في الجامعات ليس سببه إهمال أمر البحث العلمي، وإنما سببه الحقيقي العجز المالي، حيث إنّ الميزانية المالية المخصصة لتلك الجامعة لا تمكنها من إنشاء مركز للبحوث.

وأيّاً ما كان الأمر، فإنّ على المؤسسات التعليميّة أنْ تجعل للبحث العلمي أولوية وعناية خاصة، إذ لا يمكن التغلب على التخلف العلمي وقهره دون أنْ تولي أهميّة قصوى للبحث والدِّراسات العلميّة. زد على ذلك، أنّ العالم الإسلامي إذا كان يريد إرادة جادة وعزيمة قوية لإحداث

تنمية مستقلة، فإنّ الاشتغال بالبحث العلمي خليق بأنْ يهيئ للأمة طاقات وكفــاءات تجعــلها تعتمد على ذاتها، لأنّ «التعليم والبحث العلمي من الأعمــدة الأساسيّة للتنمية المستقلة في الوطن العربي، ودونهما لا يمكن أنْ يكتب لها النجاح، لأنّ التعليم والبحث العلمي مرتبطان بالإنسان، الذي هو وسيلة لتحقيق التنمية المستقلة وأيضاً غايتها»[1]، ولاسيما أني أومأت سابقاً إلى أنّ مفهوم التنمية في المنظور الإسلامي لا يتحقق إلا إذا كانت هــناك اســتقلالية واعتماد على الذات، بعيداً عن التبعية والاعتماد على الآخرين في تنمية العالم الإسلامي.

وبــناء عــلى ذلــك، فإنّ المؤسسات التعليميّة ومراكز الدِّراسات والــبحوث في العالم الإسلامي يجب عليها أنْ تضاعف من جهودها تجاه البحث العلمي، تشجيعاً وتمويلاً واستقطاباً لنــزيف الأدمغة والكفاءات الإســلاميّة الــتي يــتعرض لها العالم الإسلامي يوماً بعد يوم. فإذا قامت المؤسســات التعليميّة في مختلف بلدان العالم الإسلامي بهذا الواجب البالغ في الأهميّة غاية ليس بعدها غاية، فإنها ستحقق نهضة علمية واستقلالية في التنمــية، ولــنفرد لكــل مــن التشجيع على البحث العلمي والتمويل واســتقطاب الكفــاءات المهاجــرة جملاً يسيرة فيها بيان للطريقة المثلى للاعتناء بالبحث العلمي.

---

(١) علــي، عمــر محمــد: **رؤية مستقبليّة لدور التعليم والبحث العلمي من أجل تحقيق التنمية المستقلة في الوطن العربي** (دمشق: دار طلاس للدِّراسات والنشر والترجمة، ١٩٨٨م) ص ١٧.

أ – **التشـــجيع على البحث العلمي:** نظراً لأهميّة البحث العلمي في النهضة العلميّة وتنميتها نجد أنّ الدول المتقدمـــة تـــهتم به اهتماماً بالغاً، مما يدعو إلى الحيرة والتعجب من التكاليف الباهظة التي تنفق في هذا الميدان. لكـــن يزول هذا التعجب وتذهب هـــذه الحـــيرة إذا أحطنا علماً بما يقوم به البحث العلمي من نشاط وفاعلية وفوائد داخل المجتمع مقابل تكاليفه، فنجد أنّ التكاليف لا تساوي شيئاً إذا ما تَم مقابلتها بما أحدثه من تطور وتنمـــية ، وأنّ نفعه يتعدى الباحث للمجتمع ككل. وقد أدركت الدول الغربيّة هذه الحقـــيقة المهمّة، بـــحيث «نـــجد أنّ كل دولة تسعى بكلّ مـــا في وسعها لكي تقوم بالاستثمار الكثيف والفعّال في أنشطة البحث والـــتطوير الـــتجريبي. ولا مفر للدول التي تفشل في ذلك من أنْ تتوقع الـــتخلف عـــن ركب التقدم»[1]، بل إنّ دول العالـــم الإســـلامي قد وقعت في هذا «التوقع»، فتخـــلفت نظراً لتخـــلف البحث العلمي وقلة الإنتاج والإبداع.

إنّ البحـــث العـــلمي في عالمنا المعاصر قد أصبح مختلفاً عن البحث العـــلمي قديماً، إذ كان يمكن إجراء بحث علمي بقلم وورقة، وتتم عملية البحـــث في عقل وذهن الباحث في الغالب. وأما اليوم فقد اختلف الأمر مـــن حيث حجم الإنفاق المالي على البحث العلمي، والدليل على ذلك

---

(١) دينكســـون، جـــون: العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث، ترجمة شعبة الترجمة باليونسكو (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٧م) ص ٢٦-٢٧.

وجود مؤسسات وهيئات ضخمة مهمتها الإشراف على البحث العلمي وتقديم المساعدة والدعم المادي للباحثين، ولاسيما إذا كان البحث العلمي في مجال التقنيات أو الطبيعيات نظراً لما يحتاجه الباحث في هذه الميادين من أجهزة وأدوات ومختبرات وغيرها.

إن الـــدول الغربيّة تنفق إنفاقاً سخياً على البحث العلمي إلا أننا نجد في مقـــابل ذلك قلة الإنفاق وضعفه في أقطار العالم الإسلامي، وعدمها أحياناً بالنسبة لبعضها. ومما يصوِّر لنا هذه المأساة أنّ «الإنفاق العالمي على البحث العلمي والتطوير تجاوز ١٠ بلايين دولاراً منذ عام ١٩٧٤م، وقد جمـــع وأنفق أقل من ٣% من جملة هذا المبلغ في الدول الناميّة»[1] كلّها، فـــلا شـــكّ أنّ نصـــيب العالم الإسلامي أقل من ذلك بكثير. ولذا، فإنّ النتيجة التي نصل إليها متأسفين أنّ المؤسسات التعليميّة قد حققت عجزاً فادحاً، ولاسيما في المستوى الجامعي بالنســـبة لقلّة الإنتاج كماً ونوعاً، ممـــا حال بين هذه المؤسسات وبين تحقيق أهدافها، إذ إنّ البحث العلمي يشكو ضعفاً في التمويل في بعض بلدان العالم الإسلامي وعدمه في بعضها الآخـــر، باستثناء عدد قليل من الأقطار التي تشجع عليه، مادياً ومعنوياً. وهذا العجز المالي المؤسسي تسبب في عدم توفر الظروف الملائمة للعلماء والباحـــثين، ناهيك عن أنّ مثل هذا العجز يؤدي بالباحث الجادّ إلى أنْ يبحـــث لـــه عن مكان آخر أو مؤسسة تعليميّة أخرى أو مراكز بحوث

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٠.

خـــارج العالم الإسلامي. ومن ثَم، فقد شكل هذا الأمر أحد عوامل هجرة الكفاءات أيضاً، وقد يتواصل هذا الأمر ويشهد استمراراً مستديماً إذا لم توفر المؤسسات التعليميّة في العالم الإسلامي ومراكز البحوث الحدّ الأدنى لعملية البحث والمساهمات العلميّة لأبنائها ممن يشتغلون بالبحث العلمي.

والحاصل أنّ أبسط نظرة فيما تبذله الدول الغربيّة من الجهد الكبير والمال الجـــم لتشـــجيع الباحثين والدارسين على الإنتاج في مختلف الميادين العلميّة تكفي لإقناعنا بأنّ أمامنا طريقاً طويلة جداً لابد من أنْ نسلكها قبل أنْ نبلغ ما بلغته الدول الغربيّة من الحث على البحث العلمي والتشجيع عليه. وهذه المشكلة أحدثت قصوراً معيباً في حركتنا العلمية وتنميتها، مما أدى إلى تخلف عـــلمي وتـــراجع حضاري، ناهيك عما تجلبه من سخرية واستهزاء من قبل المـــناوئين الـــذي يتربصون بنا الدوائر في كلّ وقت وحين. ولذا، فلابد من إصلاح هذا الأمر إن كنا نريد الإصلاح حقيقة ونبتغي شهوداً حضارياً غير مـــتوهم، وإن كنا نريد أنْ نـــنْصح للعلم والتعليم في العالم الإسلامي ونقوم بترقيـــته وتنميته، وإنْ كنا نريد أنْ ننصح للباحثين والمتعلمين، فنخرجهم من الخمـــود والجمود إلى النشاط والإنتاج، لأنّ هذا التقصير المخزي راجع إلى الإهمـــال من قبل المؤسسات العلميّة ومراكز البحوث والدِّراسات للتشجيع على البحث العلمي في أغلب الأقطار الإسلاميّة.

وعلـــيه، فمـــن الأهمّية بمكان أنْ تعتني المؤسسات التعليميّة ومراكز البحوث في العالم الإسلامي بتشجيع البحث العلمي، ولكن قبل ذلك لابد

أنْ تحظى هذه المؤسسات بالدعم المالي من قبل الدولة حتى تستطيع القيام بهـذا الأمر الجلل. وأما التشجيع على البحث العلمي فضروب متعددة؛ منها تنظيم المسابقات في مختلف الميادين العلميّة، وبمثل هذا التنظيم نلفت أنظار الطلاب إلى أهمّية البحث العلمي، فضلاً عن شحذ أذهان المتعلمين للإنـتاج العلمي. يضاف إلى ذلك مـنح جـوائز للمتفوقين في الدِّراسة والبحث لتكون عوناً لهم وتشجيعاً على الاستمرار في الإنتاج العلمي.

وقـد يكـون التشجيع تارة بطباعة ونشر ما يقومون به من أبحاث ودراسـات، إذ إنّ كثيراً من الباحثين في العالم الإسلامي على الرغم من أنهم لا يتلقون تشجيعاً مادياً من قبل مراكز الدِّراسـات والبحوث، فإنهم لا يـتلقون كذلـك تشجيعاً معنوياً أيضاً، وهو أهم بكثير من التشجيع المـادي، بحيـث تقوم دور النشر والطباعة بالتأسف والاعتذار عن عدم النشـر، وإذا فتشت عن جرثومة الامتناع تجدها سبباً مادياً تجارياً، حيث إنّ أصـحاب هذه الدور يظنون ظناً أنّ ذلك الكتاب أو تلك الدِّراسـة لا تجـد لهـا قراء، ولا يمكن تسويقها، بمعنى أنه لا يستطيع أنْ يبيع تلك الطبعة فليس هناك ربح مادي من ورائها، ولكن مثل هذا التصرف الأحمق يـؤدي في الغالب إلى خسارة علميّة كبيرة. وهكذا تخمد أنفاس كثير من الأبحاث بسبب هذا التوجس الذي يصدق حيناً ويكذب أحياناً.

ولـذا، فإنّ مراكز البحوث قد تساعد مساعدة عظيمة في إزالة هذه المشكلة، وذلك بتشجيع الباحثين ولو بنشر ما يكتبون وإذاعته بين الناس، وفي ذلك تشجيع أيما تشجيع على البحث العلمي والإنتاج المعرفي.

زد على ذلك، فإنّ من المؤسسات التعليميّة المهمّة مؤسسات البحث العـلمي ومراكز الدِّراسات العليا، إذ إنّ للدول المتحضرة اعتناءً شديداً بالبحـث العـلمي والدِّراسات التي يقوم بها أهل الاختصاص في مختلف العلـوم والمعارف. ومما يدل على هذا الاعتناء الشديد إنشاء العديد من مراكز البحث العلمي والمؤسسات المشرفة عليه، بحيث لا يخلو فرع من فـروع العـلم أو فنّ من فنون المعرفة من وجود مركز للبحوث تابع له، ليكون في خدمة من أراد أنْ يشتغل بأمر البحث ويمد له العون والمساعدة لتحصيل غايته وتحقيق رغبته.

وبالمقـابل، فـإنّ الملاحظ أنّ خريج الجامعات في العالم الإسلامي، ولاسـيما مـن الدِّراسات الجامعيّة العليا، بعد أنْ يفرغ من كتابة رسالة الماجسـتير أو أطـروحة الدكـتوراه، يتوقف عند هذا الحدّ في التأليف والإنـتاج العلمي، وليس ذلك بسبب عجزه عن القيام بأبحاث ودراسات جادة في تخصصه، ولكن بسبب عدم وجود مراكز للبحوث تشرف على هذه العملية، وتقوم بالتمويل المادي، تشجيعاً للبحث العلمي. فلو تتبعت كـثيراً من خريجي الدِّراسات العليا في العالم الإسلامي لا تجد لهم إنتاجاً علمياً، إلا لبعض الأفراد القـلائل، وحتى هـؤلاء تجد إنتاجهم نزراً نظراً للتقصـير المعيب من قبل المؤسسات العلميّة من عدم بذل جهد لتأسيس مؤسسـات للأبحاث العلميّة، وحتى مراكز البحث القائمة تشكو إهمالاً

وقلة تمويل، لذلك أصبح من المحقق عند خريجي الجامعات في العالم الإسلامي أنّ الإنتاج العلمي والتفرغ للبحث صناعة لا تقوت صاحبها ولا تقيم أوده، ولا تكسبه كرامة واحتراماً في الغالب، فإذا طلبت إلى العلماء أنْ يتفرغوا للبحث والإنتاج العلمي فقد طلبت إليهم أنْ يتفرغوا للبؤس والجوع، فضلاً عن عدم الاحترام، ولذا فإنه لِزاماً على من يدّبرون أمر التعليم في العالم الإسلامي أن يهتموا بتمويل البحث العلمي.

ب - تمويل البحث العلمي: إنه لمن السخف أنْ نقارن بين التمويل المالي للبحوث والدِّراسات في العالم الإسلامي والعالم الغربي، فالبون شاسع والفرق هائل ولا وجه للمقارنة. ولعلّ من الأفضل لنا أنْ ندع المقارنة إلا إذا أردنا أنْ نقف على حقيقة هذا الفرق الهائل، ونأخذ هذا الأمر - تمويل البحث العلمي- مأخذ الجدّ، بحيث نتغلب على مشكلة التمويل، لأنّ كثيراً من دول العالم الإسلامي لها مال وفير، لكن المشكلة في كيفية استخدامه فيما ينبغي أنْ يستخدم فيه واستعماله استعمالاً حكيماً، بدلاً من تبذيره في أمور لا تنفع أو قليلة النفع. ولا أريد أنْ أطيل الكلام على أهميّة وخطورة التمويل على البحث العلمي فقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في عدّة مواضع من هذه الدِّراسة، ولكن أريد أنْ أشير إلى مصدر واحد يكون خير مموّل لمراكز البحوث والدِّراسات في العالم الإسلامي.

وهذا المصدر المهمّ يتمثل في الأوقاف، إذ قد تَم استخدامها من قبل المسلمين الأوائل في سبيل نشر العلم والتعليم. وعليه، فالملاحظ في تاريخ النهضة العلميّة في العصور الإسلاميّة الأولى أنه كان من أهم أسباها توفر الأوقــاف الخاصة بالعلم والتعليم، حيث سعى الخلفاء والأمراء الذين بنوا المساجد وشيدوا المدارس أنْ يجعلوا لها وقفاً يسيّر أمورها المالية، من حيث الــنفقة على شراء الكتب ورواتب المعلمين والنفقة على الطلبة المحتاجين وغير ذلك مما تحتاجه المدارس لأداء مهمتها التعليمية والتربوية. ولذا، فقد اضــطلعت الأوقــاف بدور مهم جداً في تمويل الحركة العلميّة والنشاط التعليمي في التاريخ الإسلامي.

وعــلى الجملــة، فإنّ مراكز البحوث والدِّراسات تجد في الأوقاف والتــبرعات الخيريّة ما يقويها على القيام بمهمتها من حيث التشجيع على البحث العلمي مادياً ومعنوياً.

ج – **استقطاب الكفاءات (الأدمغة) المهاجرة:** إنّ من الأمور المهمّة جداً في عملية تطوير البحث العلمي والاعتناء به أمر استقطاب الكفاءات التي نبذت العالم الإسلامي ظهرياً، حيث إنها تمــثّل أزمة زادت التعليم في العــالم الإسلامي تأزماً والمشكلات تراكماً. والمقصود بهجرة الكفاءات هنا: العلماء من أبناء العالم الإسلامي، المشتغلون بمجالات المعرفة والعلوم المتــنوعة، الذيــن حققــوا كفاءة وقدرة ومهارة في مختلف التخصصات العلمــيّة، ثم تــركهم لمجــتمعاتهم الإسلاميّة للعمل في المجتمعات الغربيّة.

وبالإضـــافة إلى ذلك، فإنه يدخل في هجرة الكفاءات واستنـــزاف الأدمغـــة الإسلاميّة من ذهب في بعثة علميّة، ثم بعد التخرج يفضل البقاء هناك على الرجوع إلى العالم الإســـلامي. ولكن يستثنى من هذا المصطلح - هجرة الكفاءات الإسلاميّة- في حال ما إذا كانت هذه الهجرة من بلد إلى آخر داخل العالم الإســـلامي، إذ إنّ مصلحة العالم الإسلامي واحدة، أو هكذا يجب أنْ تكون، فضلاً عن أنها لا تشكّل خطورة على المؤسسات التعليميّة، إذا لم تكن الفوارق في هذه الهجرات كبيرة[1].

وبناء على ذلك، فإنّ هذه الظاهرة التي اتخذت شكلاً جماعياً تعدّ من المشـــكلات العصـــيبة الـــتي تُعاني منها الأمة الإسلاميّة اليوم، حيث يقع اســـتنـــزاف علمائها من ذوي الكفاءات العالية، والنوعيات الممتازة من الخرجين، سواء داخل العالم الإسلامي أو خارجه. وممّا زاد هذه المشكلة إعضـــالاً أنّ العالم الإسلامي يشكو من قلّة الطاقات وندرة الكـــفاءات، وحتى في حـــال توفرهـــا في بعض البلدان الإسلاميّة، فإنها لم تحقق للأمة اكـــتفاءها الذاتي، مما اضطرها إلى استيراد كفاءات وخبراء في الميادين التي لم تحقـــق فيها اكتفاء ذاتياً. ثم إنّ هذه الكفاءات المستوردة في مجال معيّن

---

(١) لابد من الانتباه إلى أنّ هجرة الكفاءات الإسلاميّة داخل العالم الإسلامي نفسه لا تعدّ إشكاليّة، إلا أنهـــا قد تشكّل خطورة على مسألة التنمية التعليميّة، وذلك في حال استقطاب الكفاءات إلى قُطـــر إسلامي أو بعضها دون الآخرين، فيحدث حينئذٍ خلل في التنمية التعليميّة التي يجب أنْ تكـــون متساوية ولو نسبياً بين الأقطار الإسلامية، فلا تتحقق التنمية المنشودة إلا بتنمية شاملة للعالم الإسلامي كله، فتجمع الكفاءات وتمركزها في بلد دون آخر يخلّ بهذه العمليّة.

مــن التخصصات كالطب والهندسة وغيرهما، هي نفسها تمثّل أغلبيّة في نسـبة المهاجـرين من المسلمين، كما هو بيّن من خلال الجدول الآتي، وذلك بالنسبة للمهاجرين إلى الولايات المتحدة فحسب:

أعداد العلماء والمهندسين والأطباء المهاجرين

إلى الولايات المتحدة في أواخر الستينيات من القرن العشرين[١]

السنة الميلادية	مهاجرون (علماء ومهندسون)	مهاجرون (أطباء)
٣٠ يونيو ١٩٦٧ – ٣٠ يونيو ١٩٦٨	١٢,٩٧٣	٣,٠٠٠
٣٠ يونيو ١٩٦٨ – ٣٠ يونيو ١٩٦٩	١٠,٢٢٥	٢,٧٥٧
٣٠ يونيو ١٩٦٩-٣٠ يونيو ١٩٧٠م	١٣,٣٣٧	٣,١٥٥

إذن، فليس بمستغرب أنْ تكون هجرة الكفاءات أو هجرة الأدمغة من العالم الإسلامي قد شكلت ألواناً من الخسائر قد تراكم بعضها فوق بعض؛ فمــن جانــب قــد فقد العالم الإسلامي جزءاً مهماً من كفاءاته وقدراته ومهاراتــه، ومن جانب آخر قد استورد بدلاً عنهم كفاءات أجنبيّة غربيّة غريــبة عنهم، عقدياً وفكرياً وثقافياً، ومن جانب ثالث أنّ هذه الكفاءات والخــبرات المستوردة تكلفهم من المال أضعافاً مضاعفة، كانوا في غنى عنها

(١) مرسي، محمد عبد العليم: **هجرة العلماء من العالم الإسلامي** (الرياض: إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص ٥٨. وهذا الإحصاء قد تَم نشره من قبل جمعية العلوم القوميّة الأمريكيّة

(The National Science Foundation).

فيما لو وظفوا كفاءاتهم المحلية واحتفظوا بها، أو بعبارة أدق حافظوا عليها. يضـــاف إلى ذلـــك أمـــر آخر على غاية من الخطورة متمثّلاً في أن وجود الخـــبرات والكفاءات المستوردة وتوفرها في العالم الإسلامي، مع ما يخصون بـــه من احترام من قبل المسؤولين، وما يتمتعون به من حريّة في التصرّفات، ســـبب قوي لإدخال عناصر غريبة عن الثقافة الإسلاميّة والمعتقدات الدينيّة للعالم الإسلامي، مما يُحْدث ضرراً أكبر من النفع المنتظر منهم.

فإذا تبيّن عظم خطر هجرة الكفاءات على العالم الإسلامي، فإنّ هذه الظاهرة لا تحدث من فراغ أو بدون سبب، بل هناك العديد من الأسباب، منها أسباب اقتصادية، واجتماعيّة، وسياسيّة وغيرها[1]. ولكن الذي يعنينا في هـــذه المقـــام الأسباب الأكاديميّة التعليميّة، إذ إنّ المهاجرين من ذوي الكفاءات إنما هم خريجو التعليم في العالم الإسلامي في مرحلة من مراحله، يســـتثنى مـــن ذلك من ولد في الغرب من المسلمين وباشر تعليمه هناك. ولذا، فإنّ المؤسسات التعليميّة في العالم الإسلامي تتحمل جزءاً كبيراً من مســـؤولية هذه الظاهرة التي تشكّل خطورة كبيرة على التعليم في العالم الإســـلامي، حاضره ومستقبله. ويتجلى سبب العجز في كون المؤسسات التعليميّة في العالم الإسلامي لم تستطع الحفاظ على هذه الكفاءات بطريق أو بأخـــرى، ممّا أدّى إلى عجزها عن تنمية التعليم وتوفير الكفاءات للعالم الإســـلامي، لأنها فقدت خريجيها فلم تســـتفد منهم أكاديمياً في التعليم،

---

(١) محمـــد عبد العليم مـــرسي، المرجع السابق، ص ١٢٧-٢٤٥.

ولا تقنياً، ولا مهنياً. ومما زاد في مضاعفة هذا العجز المؤسساتي أنّ هؤلاء المهاجـــرين من ذوي الكفاءات والمهارات العالية يصعب تعويضهم، وإنْ توفر ذلك فيكون في المدى البعيد مما يزيد العجز عجزاً.

ناهيك عن أنّ التعليم نفسه قد يكون سبباً لهجرة كثير من المتعلمين، نظراً لتخلف التعليم في العالم الإسلامي، وما يؤدي إليه من نتائج هزيلة، سواء في التكوين العلمي الأكاديمي، أو في الإنتاج. وعليه، فمن يرغب في تكوين أكاديمي أرقى وتعليم أحسن، فلا يجد أمامه من سبيل لتحقيق هذه الرغـــبة التعليمـــيّة سوى الهجرة إلى الجامعات الغربيّة. ثم إنّ الطالـب إذا تخرج، وأصبح من ذوي الشهادات، تمر بذاكرته التجربة التعليميّة المريرة في العـــالم الإسلامي وما فيها من تخلف، فضلاً عن عدم تشجيع البحث العـــلمي، وغياب الاحترام، وسوء المعاملة، مقابل ما تتحلى به الجامعات الغربـــيّة مـــن رقي، وتشجيع على البحث العلمي وتمويله، وما يحظى به المتعلمون والخريجون من الاحترام وحسن المعاملة. فلا شك أنّ العاقل إذا قـــام بهذه المقابلة بين حالين، أحدهما تعيس والآخر بـــهيج، فيختار التي أبهج على التي أتعس، ومن ثم فيفضّل البقاء في بلاد الغرب على الرجوع إلى العالم الإسلامي.[1]

(1) يشير علماء الاجتماع: أنّ من أهم أسباب الهجرة لدى البشر تتركز في الوضع السياسي المتردي في بلادهم، والوضعية الاقتصاديّة المتدهورة. وعليه، فإنّ الهجرة ترجع إلى العوامل المنفرة في بلد والعوامل المرغبة في بلد آخر، وهو السبب الحقيقي وراء الهجرات البشريّة. انظر:

Sullivan, Thomas J.: **Sociology, Concepts and Applications in a Diverse World** (U.S.A.: Allyn and Bacon, 4edition, 1998), pp.480-482

ثم إنّ هـــذه الهجـــرة إذا تواصــــلت بصفة مكثفة سيكون لها خطر مســـتقبلي على المؤسسات التعليميّة، بحيث يُصبح أفراد العالم الإسلامي حريصـــون على تعليم أبنائهم في الجامعات الغربيّة لتحقيق حصيلة علميّة أفضل، وحياة أحسن، فضلاً عن ابتعادهم عما يجره إليهم التعليم في العالم الإسلامي من متاعب ومصاعب، بل إنّ هذا الخطر المستقبلي بدأت تظهر بـــوادره، إذ «قـــد لا يكون مســـتغرباً في عـــالمنا اليوم أنّ الأمر تجاوز هجـــرة العقول والســـواعد معاً إلى هجـــرة الأجنّة قبل الولادة. وعليه، فلعـــلّ من أعزّ الأمـــاني أنْ تلد الأمـــهات أجنّتها في أروبا أو أمـــريكا لاكتساب الجنسيّة»[1].

ولذا، فإنّ هجرة الأجنّة تشكل خطورة على مستقبل التعليم في العالم الإسلامي، حيث تفقد المؤسسات التعليميّة تدريجياً قابليّة الطلاب ورغبتهم عنها إلى غيرها، إذ إنّ كثيراً من العائلات الإسلاميّة تهاجر إلى الغرب للعمل

---

(١) نخـــبة مـــن المفكرين، **مقالات في الدعوة**، (قطر: مؤسسة الخليج للنشر والطباعة، ١٤١١هـــ) ، ص ١١. والكلام المنقول للأستاذ عمر عبيد حسنه من تقديمه للكتاب المذكور. والحقيقة أنّ هجرة الأجنة بدأت تتزايد شيئاً فشيئاً، وذلك نتيجة حرص الآباء علـــى مســـتقبل أولادهم، فيرون أنّ مثل هذا الأمر لا يتحقق إلا في البيئة الغربيّة، حيث يكـــون في حوزة الأولاد الجنسية الأوروبيّة أو الأمريكيّة بحق الولادة هناك، مما يخوّل لهم التعلم والتمتع بحقوقهم كاملة، والتي هي عرضة لفقدانها في أي وقت في حال بقائهم فـــي الـــدول الإسلامية ولاسيما العربية منها، نظراً لما تقدم ذكره من تسييس التعليم في العالم الإسلامي. وهذا أمر لا يتحمله الأفراد المهاجرون فحسب، بل غالباً ما يكون الحق معهم، وهذه المعضلة يتحمل تبعتها سياسة كثير من أقطار العالم الإسلامي.

هناك والاستقرار، وضمان مستقبل أولادهم، الأمر الذي يجعلنا نتوقع عجزاً تعليمياً أكبر مما نحن فيه، إنْ لم تعمل المؤسسات التعليميّة والسُلط السياسيّة في العالم الإسلامي على الحدّ من هذه الهجرة وتقليلها.

والحاصل أنّ هجرة العلماء والباحثين والخبراء قد اتخذت أبعاداً مفزعة في السنوات الأخيرة إلى درجة تكاد أنْ تُفرغ المنطقة الإسلاميّة من أخصب ثروة تملكها. لقد شملت الهجرة نخبة النخبة التي أنفقت المجتمعات الإسلاميّة أموالاً طائلة على تكوينها أملاً بأن تساهم يوماً في نهضته الحضارية والعلمية. ولكن كلما وصل أكاديمي أو عالم إلى مرحلة النضج وبدأ يتهيأ للعطاء هاجر إلى مركز بحوث أو جامعة غربية لتقطف الثمرة من دون أن تكون قد أنفقت عليها ديناراً أو درهماً، وذلك ينذر بتدهور التعليم في العالم الإسلامي، بل وربما خرابه.

إذن، فلاشك أنّ العالم الإسلامي يتعرض لعملية نزيف بشري على غاية من الخطورة متمثّلة في هجرة الأدمغة والكفاءات إلى العالم الغربي. ولذا، فإذا لم تعمل الأمة الإسلاميّة على الحدّ من هذا النزيف وإيقافه فإنّ تواصله واستمراره خليق بأنْ يعطل عملية التنمية العلمية تعطيلاً لا تتخلص منه إلا بإيقاف هذا النزيف. ومن ثَم، فيكون للمؤسسات العلمية ومراكز البحث في العالم الإسلامي شأن كبير وأثر فعّال في الحدِّ من هجرة الكفاءات والتقليل منها بحيث لا تشكل ظاهرة جماعيّة يترتب

عـــنها إحـــداث خلل في المجتمعات الإسلاميّة ينتج عنه عجز المؤسسات التعليميّة عن تحقيق أهدافها المرجوة، من حيث إحداث تنمية علميّة ونهضة حضـــارية. ولا يـــتم هذا الأمر إلا بمعرفة الأسباب الكامنة وراء هجرة العـــلماء من العالم الإسلامي تجاه العلم الغربي، والعمل المكثّف من أجل القضـــاء على هذه الأسباب، حتى يتسنى لنا إيقاف هذا النـــزيف العلمي الهائل والعودة به إلى موطنه الأصلي عزيزاً مكرماً[1].

ولـــذا، فمن الأهميّة بمكان أنْ تستقطب المؤسسات التعليميّة ومراكز الـــبحوث في العالم الإسلامي هؤلاء المهاجرين إلى العالم الغربي، وتعمل عـــلى إعادتهم إلى العالم الإســـلامي، بحيث تبذل جهداً من أجل توفيـــر مـــا يرغبهم في العودة، وتجعل من يفكّر في الهجرة يحجم عن ذلك، لأنّ «عدم توفر الظروف الملائمة للعلماء والباحثين، وحرمانهم من الامتيازات الـــتي تقدمهـــا مؤسسات التعليم ومراكز البحوث في العالم الآخر، وهذا بالـــتالي يعطـــي للباحث عذراً في قلّة الإنتاجيّة أو عدمها أحياناً، ويدفع بالعـــالم الجـــاد والنشيط أنْ يبحث له عن مكان آخر أو مؤسسة تعليميّة أخـــرى أو مراكز بحوث خارج الوطن العربي، ويبقى هذا الجانب قائماً

---

(١) من أراد الوقوف على أسباب هذا النوع من الهجرة بصورة مفصلة فلينظر: مرسي، محمـــد عبد العليم: **هجرة العلماء من العالم الإسلامي**، مرجع سابق. وفي هذا الكتاب تفصـــيل دقـــيق لأســـباب الهجرة، مع جداول إحصائـــيّة موثقة لما تطرق له في هذه الدّراسة القـــيّمة في موضوعها ومعلوماتها.

لـدى مؤسسات التعليم العالي العربيّة ومراكز البحوث العربيّة ما لم تحقق مؤسسـات التعلـيم العالي ومراكز البحوث قدراً وحداً أدنى يوفر فرصة العطاء للباحث العربي»[1].

وعليه، فإنّ الملاحظ أنّ كثيراً من المهاجرين يتمتعون بكفاءات عالية ومهارات راقيّة، ولذا فهم خليقون بأنْ تبذل الأمة الإسلاميّة ما في وسعها مـن أجـل الاستفادة منهم في العالم الإسلامي، ولاسيما إذا أخذنا بعين الاعتـبار أنّ أغلـب هؤلاء المهاجرين من ذوي الكفاءات في تخصصات مهمّة وضرورية للأمة الإسلاميّة مثل الهندسة والطبّ وغيرهما، مما يكلّف العالم الإسلامي رواتب باهظة من أجل جلب متخصصين في هذه العلوم مـن العـالم الغـربي. والحاصل أنه لو قامت مؤسسات التعليم ومراكز البحوث والدّراسـات في العالم الإسلامي بدراسة شاملة للدوافع وراء الهجرة، وحصرها حصراً دقيقاً لتمكنت بعدها ولو تدريجياً من استقطاب كـثير منهم، حيث إنّ بعضهم قد يكون سبب هجرتهم أسباب سياسيّة، بـل يعـدّ أهم الدوافع للتخلي عن العالم الإسلامي، وقد يكون بعضهم الآخر يشعر أنه لا يجد احتراماً وتقديراً في العالم الإسلامي مقابل ما يحظى بـه مـن تقدير واحترام وإعجاب في الجامعات الغربيّة، وغير ذلك من

---

(١) بـدران، عدنـان: دور الـتعليم العالي ومراكز البحوث في تهيئة الإنسان العربي للعطاء العلمي، مرجع سابق، ص ٢٧٤-٢٧٥.

الأسباب الكامنة وراء هجرة العلماء من العالم الإسلامي التي يمكن معالجتها وتفاديها إذا أحسنا التصرف معها.

إذن، فمثل هذه الأمور وما شاكلها، بإمكان المؤسسات التعليميّة ومراكز البحوث أنْ تقوم بتوفير المناخ المناسب للمهاجرين من حيث الاحترام والتقدير والحرية والتشجيع على الرجوع والقيام بأبحاثهم ودراساقم وأهميّة تعليمهم في أي قطر من أقطار العالم الإسلامي سواء أكان قطره الأصلي أم غيره، فكلها تمثّل الأمة الإسلاميّة ككل. وزيادة على ذلك، فإنّ الاعتناء بالبحث العلمي من حيث التشجيع عليه وتمويله، كما سبق بيانه، عامل مهم جداً من عوامل استقطاب الأدمغة المهاجرة، لأنّ معظمهم يشتغلون بالبحث العلمي وإنجاز الدراسات القيّمة، مما تعتني به الجامعات الغربية وتموله تمويلاً لا يتصوره باحث في العالم الإسلامي، وإذا بلغ مسامعه عدّه ضرباً من المُحال أو حسبه ضرباً من أساطير الأولين.

وعلى الجملة، فالقصد من هذا الكلام المتقدم أنْ تهتم البلدان الإسلاميّة بمؤسسات البحث العلمي ومراكز الدِّراسات، إنشاءً وتمويلاً وتشجيعاً، إذ إنه ليس من المعقول أنْ يُكلّف ثُلّة من العلماء بأنْ يفرغوا للبحث والتأليف ولا يوفر لهم ما يقوقم وعيالهم، وحتى إذا لم يكن باحثاً متفرِّغاً، وكانت له رغبة في إنجاز بحوث علميّة فلتمد له يد المساعدة مادياً ومعنوياً، وبدون ذلك فأنت تطلب المستحيل.

خاتمة

وبعد:

فهـذا مـا عـنّ لي من كلام في أمر التعليم وأثره في تنمية العالم الإسـلامي؛ وذلك بالـحديث عن العلم والتعليم في التاريخ الإسلامي، مـن حيث بيان ماهية العلم والتعليم من وجهة نظر إسلاميّة، فضلا عن بـيان مدى اهتمام الإسلام بشأن العلم والتعليم، مع ذكرٍ لمواضع التعليم عند المسلمين.

كمـا حاولـت الاعتناء بالكلام على التعليم وأثره في تنمية العالم الإسـلامي، وذلـك ببيان مفهوم التنمية، وخصائص التنمية الإسلاميّة، فضلاً عن بيان كيفية تحقيق تنمية تعليمية في العالم الإسلامي المعاصر.

وآمل أنْ تسهم هذه الدِّراسة في إثراء البحوث ونموّها، كماً وكيفاً، فـيما يـتعلق بموضـوعي التعليم والتنمية في العالم الإسلامي، وأنْ توجه الباحثين والدارسين نحو الاهتمام بقضايا التعليم ومشكلاته، إذ التعليم شرط أساس للتنمية وتحقيق نهضة حضارية إسـلاميّة من جديد، بل إنّ ذلك كلّه لا يتم إلا إذا كانت الانطلاقة من إصلاح التعليم وتطويره وتنميته.

والحاصـل أنّ التعليم يعدّ من المسـائل المهمّة التي يـنبغي أنْ يعتني بهـا المسـلمون ويعطوها الأولوية من حيث الاهتمام بها وتركيز الجهود

علـــيها، وذلـــك لما لها من أثر حيوي وفعّال في تنمية العالم الإسلامي، وتحقيق شهوده الحضاري من جديد.

وقـــد يحق لي بعد الفراغ من هذه الدِّراسة أنْ أقول: إنني قد قمت بواجبي وبذلت ما في وسعي، ولكن لـــيُعلم أنّ الكتابات مهما كثرت في هذا الموضوع وتنوعت، فإنّ إصلاح التعليم وتنميته سيبقى رهناً قبل كلّ شيء وبعد كلّ شيء بالسّلطات التنفيذية في العالم الإسلامي التي لها حق التنفيذ والإلزام.

ولـــذا، فإنّ للمؤسسات التعليميّة في العالم الإسلامي شأن كبير وأثر قـــوي في إصـــلاح التعليم وتنميته، لتحقيق شهود حضاري من جديد، ونهضـــة علمـــيّة مستأنفة. ومن ثَمّ، فلاشكّ أنّ أول خطوة نحو إصلاح التعلـــيم في العـــالم الإسلامي وإحداث تنمية علميّة شاملة تحقق الشهود الحضاري للأمة الإسلاميّة، لابد أنْ تنطلق من السُلط السياسيّة بحيث تقوم بـــرعاية المشـــــاريع الإصلاحيّة والسهر على تنفيذها وحسن تعهدها، وذلك لما لها من سلطة على الشعوب ونفوذ في المجتمعات تخوِّلها القيام بهذا الأمر الجلل.

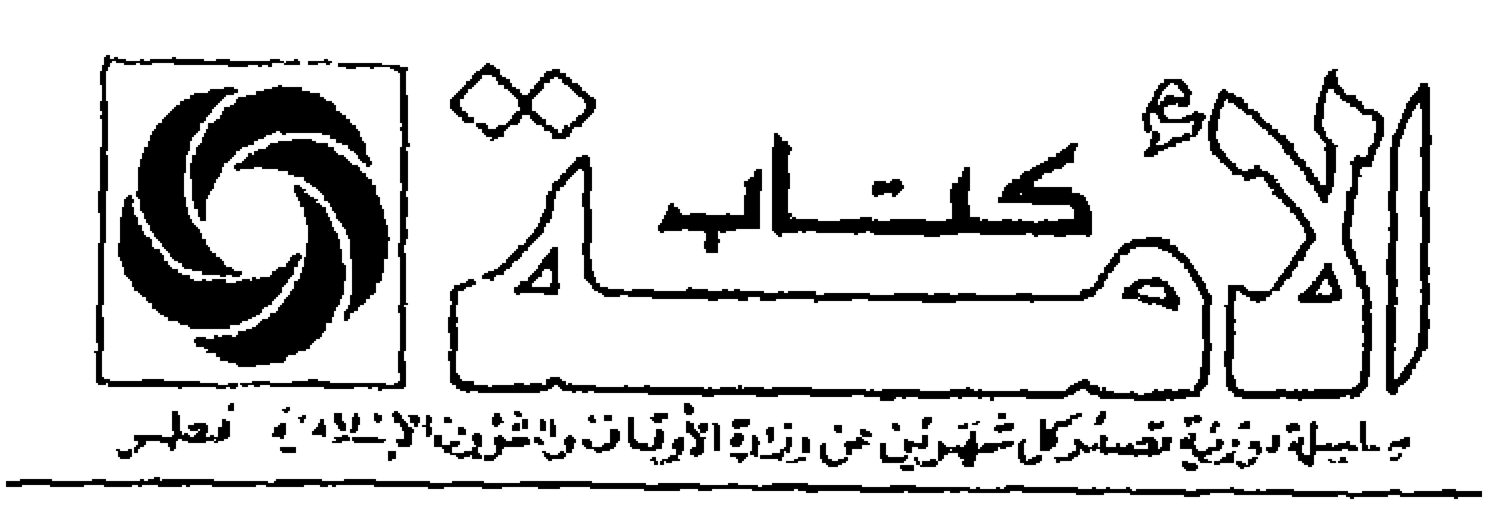
وأمـــا إذا أهملـــت السُـــلط السياسيّة رعاية التعليم و لم تعن بتنفيذ مشـــاريعه الإصلاحيّة، فلا يمكن حينها أنْ يتم للتعليم نهوض، ولا للعلوم تنمـــية، لأنـــه مهمـــا قيل وكتب عن أوجه الإصلاح والتنمية التعليمية

والنهوض العلمي يبقى رهـــين الأوراق، حبـــيس الكتب، لا قيمة له إذا لم تعره السُلط السياسيّة اهتماماً، ولم يتبعه تنفيذ وعمل، حيث إنّ القول لا يثمر إلا بالعمل، وفي هذا الأمر يكْمن نجاح التنمية التعليميّة والنهوض الحضاري أو فشلهما.

وبمــا أنّ للسُــلط السياســيّة أهميّة وخطورة على التعليم في العالم الإسلامي، فإنّ هذا الأمــر يتعدى أيضــاً إلى المؤســسات العلميّة التي لها سياسة التعليم وتدبير شؤونه نيابة عن الدولة أو السلطة السياسيّة.

وصــفوة القول: إنّه يجب الاعتناء بأمر التعليم، وإعطائه الأولوية في الاهتمام بالنسبة لحاضر العالم الإسلامي؛ لأنه مدخل أساس لتحقيق تنمية حضــارية شــاملة، والتخلص من حال التراجع الحضاري الذي أرخى ســدوله على الأمة الإسلاميّة منذ أمد بعيد، ناهيك عن أنّ عمليّة تنمية العــالم الإســلامي وما يبذل في ســبيل ذلك من جهود، لن تجدي نفعاً إذا لم تعن بأمر التعليم وتنميته قبل غيره من مجالات التنمية الأخرى، ذلك أنّ التنمية عملية حضارية تشمل مختلف أوجه النشاط في المجتمع بما يحقق رفاهــية الإنســان وكرامته، فضلاً عن كونها بناءً للإنسان، وتحريراً له، وتطويــراً لكفاءاتــه، وإطلاقاً لقدراته، كما أنها اكتشاف لموارد المجتمع وتنميــتها وحســن الاســتفادة منها، بحيث تعود بالنفع على المجتمعات الإنســانيّة، دون المســاس بسعادتها وأمنها، وذلك كلّه مفتقر إلى العلم ومحتاج إلى التعليم، في البدء والختام.

الفهرس



هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠ - فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢ - ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة

صدر منها :

- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية — الشيخ محمد الغزالي
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف — الدكتور يوسف القرضاوي
- العسكرية العربية الإسلامية — اللواء الركن محمود شيت خطاب
- حول إعادة تشكيل العقل المسلم — الدكتور عماد الدين خليل
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري — الدكتور محمود حمدي زقزوق
- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري — الدكتور محسن عبد الحميد
- الحرمان والتخلف في ديار المسلمين — (+ ط إنجليزية) — د.نبيل صبحي الطويل
- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي — الأستاذ عمر عبيد حسنه
- أدب الاختلاف في الإسلام — الدكتور طه جابر فياض العلواني
- التراث والمعاصرة — الدكتور أكرم ضياء العمري
- مشكلات الشباب: الحلول المطروحة والحل الإسلامي — الدكتور عباس محجوب
- المسلمون في السنغال.. معالم الحاضر وآفاق المستقبل — الأستاذ عبد القادر محمد سيلا
- البنوك الإسلامية — الدكتور جمال الدين عطية
- مدخل إلى الأدب الإسلامي — الدكتور نجيب الكيلاني

- المخدرات من القلق إلى الاستعباد

الدكتور محمد محمود الهواري

- الفكر المنهجي عند المحدثين

الدكتورهمام عبد الرحيم سعيد

- فقه الدعوة: ملامح وآفاق.. في حوار

("الجزء ١، ٢" + طبعة خاصة بمصر) — الأستاذ عمر عبيد حسنه

- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر

الدكتور زغلول راغب النجار

- دراسة في البناء الحضاري

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الدكتور محمود محمد سفر

- في فقه التدين فهمًا وتنزيلاً

("الجزء ١، ٢" + طبعتا مصر والمغرب) - الدكتور عبد المجيد النجار

- في الاقتصاد الإسلامي

(+ طبعتا مصر والمغرب) - الدكتور رفعت السيد العوضي

- النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية

(+ طبعتا مصر والمغرب) - الدكتور محمد أحمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل

- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق

(+ طبعتا مصر والمغرب) - الدكتور أحمد محمد كنعان

- المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الدكتور عبد العظيم محمود الديب

- مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي

(+ طبعتا مصر والمغرب) — نخبة من المفكرين والكتاب

- مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- **إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- **الصحوة الإسلامية في الأندلس**

(+ طبعة خاصة بمصر) – الدكتور علي المنتصر الكتاني

- **اليهود والتحالف مع الأقوياء**

(+ طبعة خاصة بمصر) – الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

- **الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع**

(+ طبعة خاصة بمصر) – الأستاذ منصور زويد المطيري

- **النظم التعليمية عند المحدثين**

(+ طبعة خاصة بمصر) – الأستاذ المكي أقلاينة

- **العقل العربي وإعادة التشكيل**

(+ طبعة خاصة بمصر) – الدكتور عبد الرحمن الطريري

- **إنفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق**

(+ طبعة خاصة بمصر) – الدكتور يوسف إبراهيم يوسف

- **أسباب ورود الحديث**

(+ طبعة خاصة بمصر) – الدكتور محمد رأفت سعيد

- **في الغزو الفكري**

(+ طبعة خاصة بمصر) – الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

- **قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي**

("الجزء ١، ٢" + طبعة خاصة بمصر) – الدكتور أكرم ضياء العمري

- **فقـــــه تغـــــيير المـــــنكر**

(+ طـبعة خاصـة بمصـر) – الدكـتور محمـد توفـيق محمـد سـعد

- **فـــي شـــرف الـعــربـيـــة**

(+ طبعـتا مصـر والمغـرب) – الدكـتور إبراهـيم السـامرائي

- **المـنهج الـنبوي والتغـيير الحضـاري**

(+ طبعـتا مصر والمغـرب) – الأسـتاذ بـرغوث عبد العزيز بن مبارك

- **الإســلام وصــراع الحضــارات**

(+ طبعـتا مصـر والمغـرب) – الدكـتور أحمـد القديـدي

- **رؤيـــة إســلامية في قضــايا معاصـــرة**

(+ طبعـتا مصـر والمغـرب) – الدكـتور عمـاد الديـن خلـيل

- **المســـتقبل للإســـلام**

(+ طبعـتا مصـر والمغـرب) – الدكـتور أحمـد عـلي الإمـام

- **التوحـيد والوسـاطة في التربـية الدعوية**

("الجـزء ١، ٢" + طبعـتا مصـر والمغـرب) – الأسـتاذ فـريد الأنصـاري

- **الإســـلام وهمـــوم الـــناس**

(+ طبعـتا مصـر والمغـرب) – الأسـتاذ أحمـد عـبادي

- **التأصـيل الإسـلامي لـنظريات ابـن خلـدون**

(+ طبعـتا مصـر والمغـرب) – الدكـتور عـبد الحلـيم عويـس

- **عمـرو بـن العـاص.. القـائد المسـلم.. والسـفير الأمين**

("الجـزء ١، ٢" + طبعـتا مصـر والمغرب) – اللواء الركن محمود شيت خطاب

- **وثـيقة مؤتمـر السـكان والتنمـية.. رؤيـة شرعية**

(+ طبعـتا مصـر والمغـرب) – الدكـتور الحسـيني سـليمان جـاد

- **في السـيرة النـبوية.. قـراءة لجوانـب الحـذر والحمايـة**

(+ طبعـتا مصر والمغـرب) – الدكـتور إبراهـيم عـلي محمـد أحمـد

- أصول الحكم على المبتدعة عند شيخ الإسلام ابن تيمية

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الدكتور أحمد بن عبد العزيز الحليبي

- من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الأستاذ عبد الله الزبير عبد الرحمن

- عبد الحميد بن باديس "رحمه الله" وجهوده التربوية

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الأستاذ مصطفى محمد حميداتو

- تخطيط وعمارة المدن الإسلامية

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الأستاذ خالد مصطفى عزب

- نحو مشروع مجلة رائدة للأطفال

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الدكتور مالك إبراهيم الأحمد

- المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الدكتور سالم أحمد محل

- من فقه الأقليات المسلمة

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الأستاذ خالد عبد القادر

- الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الدكتور عبد المجيد السوسوة الشرفي

- النظم التعليمية الوافدة في أفريقيا.. قراء في البديل الحضاري

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الدكتور قطب مصطفى سانو

- إشكاليات العمل الإعلامي.. بين الثوابت والمعطيات العصرية

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الدكتور محي الدين عبد الحليم

- الاجتهاد المقاصدي.. حجيته.. ضوابطه.. مجالاته

("الجزء ١، ٢" + طبعتا مصر والمغرب) — الدكتور نور الدين مختار الخادمي

- القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الأستاذ عبد المجيد بن مسعود

- أضواء على مشكلة الغذاء في العالم العربي الإسلامي

(+ طبعتا مصر والمغرب) — الأستاذ عبد القادر الطرابلسي

- نحـــو تقـــويم جديـــد للكـــتابة العربـــية

(+ طبعـــتا مصـــر وللغـــرب) — الأســـتاذ الدكـــتور طالـــب عـــبد الـــرحمن

- دور المـــرأة في رواية الحديث في القرون الثلاثة الأولى

(+ طبعـــتا مصـــر والمغـــرب) — الأســـتاذة آمـــال قـــرداش بنـــت الحســـين

- الإعـــلان مـــن مـــنظور إســـلامي

(+ طبعـــتا مصـــر والمغـــرب) — الدكـــتور أحمـــد عيســـاوي

- تكويـــن الملكـــة الفقهـــية

(+ طبعـــتا مصـــر والمغـــرب) — الأســـتاذ الدكـــتور محمـــد عـــثمان شـــبير

- الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري.. أنموذج مالك بن نبي

(+ طبعـــتا مصـــر والمغـــرب) — الأســـتاذ بـــدران بـــن مســـعود بـــن الحســـن

- الـــترويح وعوامـــل الانحـــراف.. رؤيـــة شـــرعية

(+ طبعـــتا مصـــر والمغـــرب) — الأســـتاذ عـــبد الله بـــن ناصـــر الســـدحان

- فقـــه الواقـــع .. أصـــول وضـــوابط

(+ طبعـــتا مصـــر والمغـــرب) — الأســـتاذ أحمـــد بـــو عـــود

- دعـــوة الجماهير.. مكونات الخطاب ووسائل التسديد

(+ طبعـــتا مصـــر والمغـــرب) — الدكـــتور عـــبد الله الـــزبير عـــبد الـــرحمن

- اســـتخدام الرســـول ﷺ الوســـائل التعليمـــية

(+ طبعـــتا مصـــر والمغـــرب) — الأســـتاذ حســـن بـــن عـــلي البشـــاري

- المصـــطلح خـــيار لغـــوي وسمـــة حضـــارية

(+ طبعـــتا مصـــر وللغـــرب) — الأســـتاذ ســـعيد شـــبار

- عـــالم إســـلامي بـــلا فقـــر

(+ طبعـــتا مصـــر والمغـــرب) — الدكـــتور رفعـــت الســـيد العوضـــي

- نحـــن والحضـــارة والشـــهود

("الجـزء ١ ، ٢" + طبعـــتا مصر والمغرب) — الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

- القواعـــد الشرعية ودورها في ترشيد العمل الإسلامي

(+ طبعـــتا مصـــر وللغـــرب) — الدكـــتور محمـــد أبـــو الفـــتح البـــيانوني

- **التفكك الأسري .. الأسباب والحلول المقترحة**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – مجموعة من الباحثين

- **الارتقاء بالعربية في وسائل الإعلام**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – الأستاذ نور الدين بليبل

- **التفكك الأسري .. دعوة للمراجعة**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – مجموعة من الباحثين

- **ظاهرة العولمة .. رؤية نقدية**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – الدكتور بركات محمد مراد

- **حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – مجموعة من الباحثين

- **حقوق الإنسان بين الشريعة والقانون**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – د.منير حميد البياتي

- **البعد الحضاري لهجرة الكفاءات**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – مجموعة من الباحثين

- **معالم تجديد المنهج الفقهي.. أنموذج الشوكاني**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – الأستاذة حليمة بوكروشة

- **الطفولة.. ومسؤولية بناء المستقبل**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – أ.د. نبيل سليم علي

- **في الاجتهاد التنزيلي**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – د. بشير بن مولود جحيش

- **لا إنكار في مسائل الخلاف**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – د. عبد السلام مقبل المجيدي

- **من أساليب الإقناع في القرآن الكريم**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – د. معتصم بابكر مصطفى

- **الغرب ودراسة الآخر.. أفريقيا أنموذجاً**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – د.علي القريشي

- **قضية المرأة.. رؤية تأصيلية**

(+ طبعتا مصر والمغرب) – د.سعاد عبد الله الناصر

وكـــــلاء التـــوزيـــــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطـــــــر	دار الـــــــــــــــثقافة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٦٢٢١٨٢ ٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس: ٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
الســـعودية	مكتـــــــبة الـــــوراق	٤١٦٢٥٢٧	ص.ب: ٩ الرياض ١١٤١١ فاكس: ٢١٠٧٠٦٤٢
الـــبحرين	مكتـــــــــــبة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويـــــت	مكتـــبة دار المـــنار الإسلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتـــبة علـــوم القـــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب: ٣٣٧١ – عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الـــــيمن	مجموعـــة الجـــيل الجديــــد	٧١٣٦٣-٧٨٠٤٠ ٧٥٨١١- ٢٧٠٣٨	ص.ب: ٥٤٤- صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الســـودان	دار الغـــد للنشـــر والـــتوزيع	٠١٢٣٥٠٦٩٥	الخرطوم – السودان فاكس: ٧٧٩٣٤١
مصــــــــر	مؤسســــة توزيـــع الأخـــبار	٥٧٨٢٥٠٠ ٥٧٨٢٦٠٠	ص.ب: ٧ – القاهرة فاكس: ٥٧٩٠٩٣٠
المغـــــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦- الرباط
إنكلـــــترا	دار الـــــرعاية الإســــلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233, Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

مركز البحوث والدراسات

هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة - الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

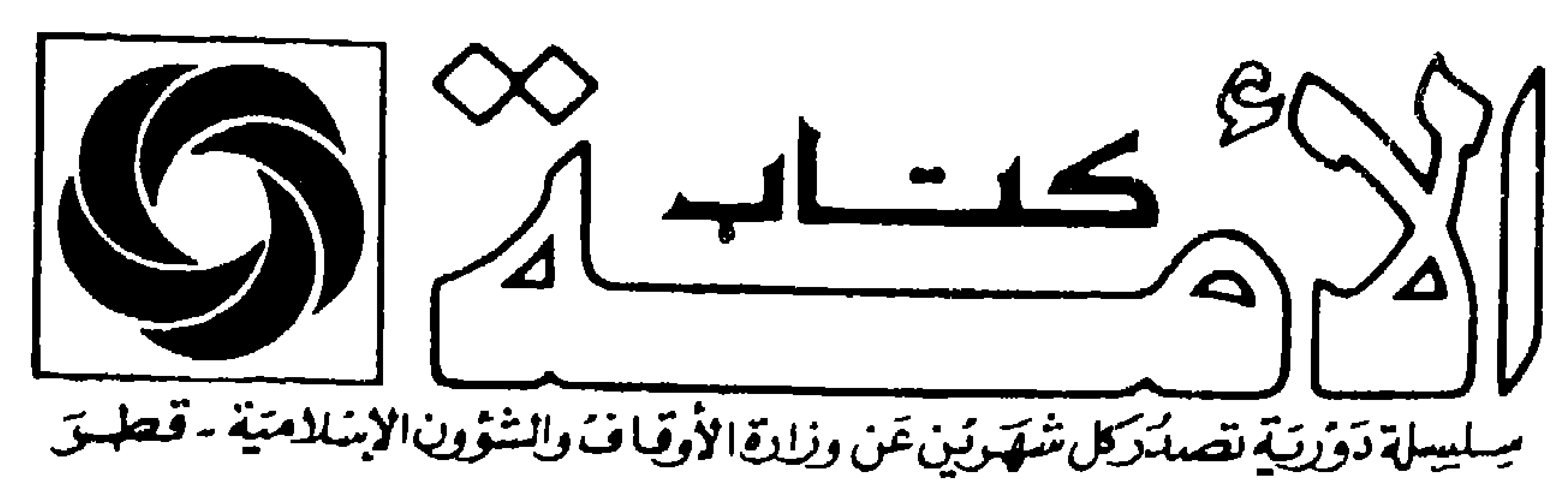
موقعنا على الإنترنت:
www.islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail
M_Dirasat@Islam.gov.qa

ثمن النسخة

الأردن	(٥٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريالات
السودان	(٤٠) ديناراً
عمان	(٥٠٠) بيسة
قطر	(٥) ريالات
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٣) جنيهات
المغرب	(١٠) دراهم
اليمن	(٤٠) ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.



ص . ب : ٨٩٣ . الدوحة . قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هــذا الكــتاب.. يمكــن أن يشــكل لبنة في البناء التنموي، الذي يرتكز إلى المعرفة، كما يعتبر محاولة للانفكاك من واقع التخلف، والتحول من عملية الإحساس بإشــكالية التخلف إلى محاولة إدراك أبعادها، ودراسة الأسباب المنشئة لها، والدعوة للــنظر في كيفية التعامل معها، ووضع البرامج والخطط لمعالجتها، والتأكيد أن التعليم هــو سبيل الخروج، وأن عجز التعليم عن العطــاء إنــما هو لأسباب خارجة عنه، فلا مناص من النظر فيها.

إن معظــم المفكــرين والباحثين يرون أن إشكالية التنمية تكمن في نظام التعليم وآلــيات التربية والتنشئة، لكن المشكلة - فيما نرى- أن واقع التعليم وآلياته وسياساته هــو إفــراز لذهنية الاستبداد، الذي يشكل قمة التخلف وأساسه.. وأن فساد العملية التعليمية هو الذي أورث ذهنية الاستبداد، فهو مقدمة ونتيجة في الوقت نفسه.

ومهمــا يكن من أمر، فإن المؤسسات المعرفية عامة، والسياسات التعليمية الهادئة المبصرة، قادرة على عزل مواقع الاستبداد وأثرها عن ضمير الأمة.

كما أنها قادرة على أن تحول التخلف إلى أداة لإيقاظ الأمة وشحذ فاعليتها، وجمع طاقاتها، ودفعها إلى التجاوز والنهوض.

ولا نــزعم بأنــنا في هذا الكتاب قدمنا الحل للإشكالية، لكننا على الإحساس بها، الذي نأمل أن يقود إلى الإدراك، ويهدي إلى سبيل المعالجة.

موقعنا على الإنترنت: www.islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E-Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa